




خليل النعيمى

# مخيلة الأمكنة

## مدن و نصوص

بول كلي (1879، 1940)

الأعمال الخاصة

مهرجان القراءة للجميع
للطفل - للشباب - للأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة

# مُخيّلة الأمكنة

## (مُدُن ونُصوص)

# مُخيّلة الأمكنة

## ( مُدُن ونُصوص )

خليل النعيمي




# مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٣

## مكتبة الأسرة

## برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الخاصة)

إشراف: غادة الريدى

مُخيّلة الأمكنة (مُدُن ونُصوص)
خليل النعيمي

تصميم الغلاف
والإشراف الفنى:
للفنان : **محمود الهندى**
الإخراج الفنى والتنفيذ:
**صبرى عبدالواحد**
الإشراف الطباعى:
**محمود عبدالمجيد**
المشرف العام :
**د. سمير سرحان**

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
وزارة الشباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

## على سبيل التقديم:

لا سبيل أمامنا للتقدم والرقي وملاحقة العصر إلاّ بالمزيد من المعرفة الإنسانية.. نور يهدينا إلى الطريق الصحيح، ولأن مكتبة الأسرة أصبحت أهم زهور حدائق المعرفة نتنسم عطرها ربيعًا للثقافة المصرية الأصيلة.. فإننا قطعنا على أنفسنا عهدًا ووعدًا ليس لنا إلا الوفاء به لتثمر شجرة المعرفة عطاءً للأسرة المصرية.

**د.سمير سرحان**

سافروا! سافروا، تكتشفوا المكان الذين تبحثون عنه، ذات يوم. فالمكان لمن يبدعه، لا لمن «ينام» فيه!

خ.ن

# المحطة القادمة!

ماذا يعنى المكان بالنسبة للكائن؟

سؤال يطرح علينا كثيراً عندما نسافر. ونكاد نكتشف، فى كل مرة، أننا عاجزون عن الجواب. نكتشف، أيضاً، على عكس ما تعلمناه عن «أحادية العواطف» الكاذبة، أننا قادرون على أن نحب أكثر من مكان، فى آن واحد! (تماماً، كما نفعل مع الكائنات).

عندما نلتقى بمكان جميل نفرح كالأطفال، حتى ولو لَمْ يكن يخصنّا، ولا نستطيع الإقامة فيه. هذا التعلّق العفوى بالمكان، ألا يُنّبئ بأن «بيت الكائن» هو الكون، في أية جهة منه أقام؟

علاقة الكائن بالأمكنة حسّية. تتجاوز التحفّظ والتخطيط. وعاطفته مكانيّة. وهي أصل العواطف الأخرى عنده، بما فيها الجسدية.

من السفر نتعلّم أن نرى أبعاد الأمكنة المتعددة. «فالبعد الواحد» لا وجود له، في الحقيقة، إلاّ في ذهن الكائن الخامل. وهو ما يُنَشِّط مخيّلتنا التي تكاد أنْ تغفو في «فضائها المعتاد»! وهذا الفعل المكانيّ بامتياز سيكون مصدر حبّها المتجدد له.

في السفر يتألّق التاريخ الشخصي للكائن. وتتفجّر دهشته. الدهشة التي كاد أن يدفنها في رُكام مكانه الأليف. فيه، يغدو التخلّص من براثن «الأمكنة الملتهمة» نوعاً من مقاومة الهلاك النفسي المخيف! ومع ذلك يظل السؤال قائماً: كيف نبدع الأمكنة؟ كيف نغني مخيّلتها، ونصونها من الموت. سافروا! سافروا، تكتشفوا المكان الذي تبحثون عنه، ذات يوم. فالمكان لمَنْ يبدعه، لا، لمَنْ «ينام» فيه!

خ. ن

# «عشرة أيام فى اليمن هزت الروح»

الى اصدقائي في صنعاء

## (١)

من مساوئ الفكر البورجوازي العظمى (وبخاصة في شقه التقدمى) انه جعل الوهم فى متناول الجميع.

وأول وهم روج له هو «وهم الحداثة».

من الطائرة أرى.

فضاء مفتوح. نور ساطع بلا ضفاف. جبال جرد لا يحدها البصر. قمم مكشوفة للريح. وديان مدفونة في القاع.

لا شجر. لا ضباب. ولا غيم.

كون برى عصيّ على الإدراك مع أنه فى متناول النظر.

•••

منذ ساعات، فقط، تركت فضاء «باريس» المتراكم بعضه فوق بعض: ضباب كثيف بلا نور. خضرة مطاطية بلا روح. أكوام من الابنية الاسمنتية المتراكبة (مثل قمصان الميت من البرد). أرتال من السيارات التى صارت ترهق الأرض. وبعض بشر لازال يعرف كيف يمشى على قدميه. بشر نسى، بالتأكيد انه من هذا البشر.

عن كثب أرى.

أحجار عظمى تجلس بأبهة فوق القاع. أتربة وأشواق شتى مرمية بإهمال فى كل مكان. عالم يعبره الضوء بلا حواجز أو سدود. الشمس تلامس مباشرة جسد الأرض.

في هذا الخليط الملتهب! أبحث عن الماء. عن نطفة خضراء تخصب العين. عن مَرّقَد أو مسيل، دون جدوى. لكأن الطبيعة التي وهبت اليمن كل شيء، اخذت منه كل شيء، أيضا.

ماذا بقى لى غير أن انظر وأن أتمتم، غير أن اتبصّر، وأن اتحسّر: أرض بلا ماء!

•••

في فندق «سبأ» أكبر فنادق العاصمة (أريد أن أقول فندقها الكبير الوحيد) جلست وحدى. شربت شايا. واستمعت الى موسيقى صاخبة ذكرتنى بباريس.

أغاني انكليزية رديئة تغنيها فتيات مبتدئات على أنغام متهوّرة. من أي مكان هن؟

اسأل النادل. لا يتكلم العربية. وأنا؟ لا أريد أن اتكلم بغيرها هنا.

الفتيات الثلاث يعلّن، فجأة انهن سيغنين «لميكل جاكسون». واتعجب من سماعى: مايكل جاكسون فى قلب صنعاء التى قُدّت من حجر؟

لماذا لا تغنى العربيات؟ ولكنهن أين؟

هل رأيت نساء فى صنعاء؟

•••

لا تخضع لإغراء ذاتك عندما ترى الى نفسكَ. ولا تسرف فى تشددها عندما ترى الى الأخرين.

العـالم، دائمـا، ثنائي القطب: هو وأنت. لِمَ تريد أن توحـده في ذهنك وعينيك؟

هل ثمة مصدر آخر للاستبداد غير هـذا، غير هذه الإرادة المنافية للطبيعة؟

•••

هنا.

بشـر لا تسأل نفسك لِم يعيشون، وإنما كيف يستطيعون أن يعيشوا. كيف يستطيعون أن يواصلوا «العيش» في هذا الفضاء الحجرى الصارم.

ومن الذاكرة الحجرية تستعيد بروقها وازهارها، ينابيعها ومتاهاتها، ثوراتها وخموداتها. وتضحك.

تضحك وانت تتلمّظ بكلمة «الحداثة» التى غدا طعمها لينا وسمجا (لكأنما عجنتها الشمس).

تضحك وتضحك معك الصخور.

«الحداثة» هي «طريقة استعمال الزمن من أجل الإنتاج». واستعمال الإنتاج من أجل انتاجات اخرى «تتراكم». وتراكمها هو الذى سيؤدي، في النهاية، الى «التمايز». تمايز الفئات والأفراد: مصالح، وأفكارًا، واخلاقًا، وسلوكًا.

وهذا «التمايز» هو العتبة الأساسية في الحداثة وناظمها الكبير. لماذا؟ لأن كلا منا (باعتباره فردا، وباعتباره جزءا من فئة) سيدافع، منذ يعي «العملية»، عن دوره فيها.

أي إنتاج في هذا الفضاء المنفتح على الأزل، المتخم بسكون هائل تحسه العين قبل أن يستوعبه الإدراك؟ وأي تراكم ممكن، غير تراكم الزمن السرمدى، في هذا «العالم» الممتلئ بذاته، والذى يهزأ، علناً، من كل اطروحات الحداثة، ومن لَغْوها؟

فجأة يلمع الضوء في عيني.

أن تستعيد الطبيعة التي فقدتها، أو التي لم تعرفها، أبدا، من قبل، شيء رائع.

لست بحاجة الى احكام ومقولات، إذن، (وبخاصة عندما تكون مستهلكة، وهل ثمة أخرى؟) لأحاكِم بها عالَما يحيا.

أننى بحاجة الى اكتشافات. الي عيون جديدة أرى بها العالم من جديد. الى ملامسة حسية أُخرى.

الى مُقارَبة مبدعة لعناصر الطبيعة (التي تعودنا على إهمالها).

مـا جـدوى أحـاسـيس الـكائن إنْ لـم تبـصـر خَطَرات الكون واصـداءه؟ لندع هـذا، كله، جـانبـا ولنمش. أريد أن أرى العالم لا أن أتوارى في ذاتى. أريد أن أحسّ، لا أن اعسّ.

(٢)

الجمعة صباحا.

مـوعدنـا للإنطلاق الى «مـأرب» وسـدها التـاريخى العظيم. قبل الإنطـلاق مباشـرة حذرنـا السـائق الشـاب، ذو الوجه الملتهب من العرق والغبار، وقـد تقاطع طريقنا وطريقـه، صدفة، حذرنا من خطورة الـذهـاب الى هـناك. حـدثنا بعـفـوية تـأسى اللب، وتدعو السامع الى التصديق، دون حاجة الى برهان. كيف يمر الصـدق من العـين الى العـين؟ ومـا حـاجة الجـاهل الى برهان ممن لا يعـرف البـرهـان؟ اقتنعنا، فـورا، بما قـال دون أن نطلب المزيد.

كنت أحلم منـذ أن رأيت الأحـرف ترتسـم على الـصـفـحـات الصُفّر، في أقـاصـى «الجـزيرة السـورية»، برؤية السـد القـرآني، وها هو ذا يطير من أمام عينى قبل أن أراه.

حَوّلنا وجهة الرحلة الى أمكنة أخرى. أمكنة لا تفتقر اليمن التاريخية الى أمثالها. ماذا بقى أمامنا غير أن نبدأ السير، اخيرا؟

فى الطريق.

وجوه محروقة. ألبسة بلا ألوان. بشر يمشون بهدوء ويتكلمون صمتًا. وإذا تكلموا تكاد ألاّ تفهم مما يقولون شيئا. لماذا؟ لانهم يخبئون نصف الكلام فى نفوسهم، ولا يظهرون لك إلا نصفه الآخر، النصف الذى لا يريدونك أن تدرك منه شيئا.

أى شىء يملأ هذه الرؤوس المحروقة، والوجوه العابسة بإستمرار؟ لم آرَ آحدا منهم يضحك، ابدا.

ولِمَ تراهم يضحكون؟

يتَلفّتَ الشاب. عود الحَطَب الخارج من الرمادِ. لكأنه يبحث عن أحد يئس من لقائه، وأَصرَّ، مع ذلك، على أن ينتظره الى الأبد: اصرّ مع ذلك على أن يلقاه.

مَنْ يخاطر بانتظار هذا الوجه البائس؟ من يملك الشجاعة لانتظاره؟ ولِمَ يمكن أن يُنتظَر واحد مثله، اصلا؟

كائن مهتزئ وهو في أول الحياة.

•••

الجمعة ظهرا.

كوكبان «عالم رائع من الاحجار التى كأنها التبر. «كوكبان، هكذا «قالت» مريم الصغيرة ذات الأعوام العشر، عندما سألتها عن اللثام الأسود الذى يخفى كل شيء فيها ما عدا العينين.

لأول مرة خطر لي، وأنا أحدق فيها «ان العيون أبواب للروح، ومداخل للجسد «وأنها وحدها تكفى للنفور من الكائن، أو للدخول عليه (واليه) بلا حجاب.

اليمن بلد دائري. وهوليس مغلقا، وإنما محفوظ بجغرافيته.

خطر لي ذلك، وانا اتمعّن في مدينة «الأهَجُرَ»، في الطريق الى «مَحْويتْ».

«أهجر»؟ قلت سائلا «ابراهيم» الذى كرر الاسم ببراءة دون أن ينبش فى خفاياه، أو أن يهتَمّ، على الأقل، بما كان يعينه.

«أهجر اليها، لامنها، بالتأكيد» قلت مخاطبا حالى، وانا أرفع رأسى الى السماء ملاحقًا بيوتها، (أعشاشها الحجرية الهائلة بالاحرى). اعشاش جبارة حفرت على مر العصور في قمم الجبال المتشتتة فى الفراغ.

من أراد بهـا شـرًا، ذات يوم؟ ولماذا التـجـأ أهلهـا كـالطيـور المطرودة الـى أعـالى الجبـال. أى خـوف تاريخي اجبـرهـم على التعلّق فى السماء؟

●●●

لا.

ليس عسيـرا على الفهم أن تكون اليمن، في التـاريخ، مصدرا مستمرًا للتمـردات.

التـضـاد الصـارخ بين القـمم والوديـان. الوجوه المحفـورة فى الرووس الصُمّ. الاجـسـاد الذابلة مـن «القَاتّ». الأرواح المكبـوتة التي لا تغادر الأجساد التي تقيها شر التطفّل إلاّ لتعود، سريعا، اليها.

فى هذه البـلاد، «العـزلـة» هـى الشكل الوحـيد للتـواصل. أى نوع من العواطف ينشئ هـذا الشكل غير التوتر والاحتراق.

●●●

وتبلبلنى الأفكار.

المفاهيم فارغـة وجوفـاء. الحيـاة الحقيقيـة هـى هـذه الحـياة. وحياة مثل هـذه لا يمكن تلافيها.

واستدير.

أرى الى الأسفل. أرى الى الأعلى. يميناً أرى. ويساراً أرى. ولا تملأ رأسى إلا فكرة طاغية:

فضاء لا يوحى بالتعَقّل بل بالعصيان.

ماذا يريد الأدعياء، إذن؟

•••

وأستدير، مرة أخرى.

أرى وجه «ابراهيم» المتلألئ بالنور، وهو يقف فوق صخرة حمراء، ينظر فى خلاء أبدى قاهر. إلى جانبه يقف «علي» بثوبه الأبيض الهفهاف. يحرك بمتعة ذراعيه، وهو يدلي بجسمه في الفراغ.

«يريد أن يطير» اصحت محذرًا «ابراهيم» من طيران «علي» وقد بدا على أهبّة السقوط فى حضيض «كوكَبان» الهابط، بلا رحمة، الى القاع.

وفى البعيد أرى. أرى، لأول مرة، ضبابًا. ضباب مملوء خيلاء. ضباب لا يستر بشرًا وطرقات (مثل ضباب أوربا البليد) وإنما يخفى قمم جبال يسكنها الناس ـ الطيور، منذ أول العصور.

•••

من النهـار تسـقط فى الليل رأسًا. هذه كـانت حـالنـا، ونحن نصل «الطويلة». للتـوّ كـانت الشـمس تملأ عـيوننا، وفـى الحال صـار العـالم ظلامـا. لابد أن يكون ذلـك الهـجوم الغـامـر للظلمـة علينا قد تَمّ بفعل تلك الجبال العصيةَ على الفهم والتطويع.

فى رؤوسـهـا أبحث، برغم العـتمـة، عن الناس. فى بيـوتهـا الصخرية المتوازية على القممِ المتجاورة لا إنْس ولا جن. حتى الطيور لا تصل إليها. وأصير أُبرّرُ لنفسى، وأنا أحاول أن أرقى الجبل المبتدئ: دور جميلة بلا كائنات؟

كنت أريد أن أرى وجه أحد يطل. وجه امرىء ينبىء عن وجود فى أعالى الكون. ولكن كيف يمكن لك أن تري وجه مَن لا يراك الا بالسواد؟ كيف يمكن لك أن ترى وجهك انت عبر وجه ملثم؟ أو أن تسمع صوتك من خلل صوت مكتوم؟

•••

بلد بلا نساء.

رجاله ظمأى يبحثون عن حب مستحيل. حب مكشوف الوجه والانحاء. يمارس تواصله علنًا وصريحًا.

عالم مكفّن بالأسود، ويسكن «المقَيل»، كيف ينتج حبا؟

•••

عـالم بلا فُروقـات ظاهرة، لكنـه مـتـخم بالـرعـد والاهـتـزاز. عالم حى، شديد الحياة، لكن الحيوية تتقصه الى حد كبير.

في هذا العـالم ذى الوجه الواحـد، واللون الـواحـد، والجـسـد الواحـد، فُروقـات «مـتـفـجـرة» لا تراهـا العـين (بل تـراهـا)، لكن التعرف عليها يقتضى جهدًا (وينتج شعرًا).

•••

الجمعة ليلا.

(ما معنى الوقت بعد مغيب الشمس فى اليمن؟) نعود الى «صنعاء». نعود من رحلة الشمال القصيرة ـ الطويلة. نعود لنبدأ رحلة «الجنوب».

## (٣)

«ذَمارٌ» مساء.

انحدرنا من جبال «صنعاء» العالية المهيبة، متجهين الى «عدن».

. ما أن غابت الشمس حتى حل الليل بلا مقدمات. لكأن الظلام لم يكن ينتظر الا برود النور.

أي جنون دفع بى للسير ليلاً؟ للسير على طرق ضيقة وخطيرة، ذلك اليوم. خوفي من الرؤية المليئة بالضوء؟ أم خوفى من التوغل فى فضاء صرت أحبه أكثر يوما بعد يوم؟ فضاء صار يستثير حنينى (الى أي شىء كنت أحن؟) المكبوت منذ سنين.

الطريق الملتوي مثل امعاء الميت اصابنى خوف حقيقي. خوف كاد يشل طاقتى على التمتع. خوف كان ينحدر الى من قمم تركبني باستمرار، وينبع من وِ دّيان لا ترُجع الصدى ولا تعيد الصوت. أنصل عدن؟

من «بيت الكوماني» اشترينا قاتا وماء باردا وتابعنا الطريق: طريق الظلمة الذي لا يحد. سائقى «على»، وهو شاب أسمر متحمس، كان يردد: «أريد أن أُخَزّنَ». ولأننى لم أكن أرد لانشغالي العاطفي المفرط بانكسارات الضوء المظلم على القمم المتجاورة مثل اثداء هائلة في الفضاء، كان يضيف خَجلا: «التخزين ضروري للطريق» (لكأننى كنت أجهل ذلك). وافهم منه أن حياتي معلقة بتخزينه. ويفهم هو اننى فهمت، ويفرح. يصير يقود بمرونة اذهلتنى. لكأنه كان يُلاعِب الطريق.

«انا ايضا أريد أن اخزن». اقول بصوت متواطئ. ورأسا يهئ الوليمة الخضراء لكلينا. يهيئها دون أن يكف عن مُداعبة الطريق الذى صار يتلوّى، أكثر فأكثر، عمدا.

•••

الليل الذي أناخ بكلكله على الكون لا يسمح للعين بالرؤية المتروية.

كنت احسني اخترق الظلمة المظيئة لألقي نظرة فضية على الجبال والوهاد التى لا تكف عن التراجع، خلفا.

كنت احسنى أُخَلِّف جزءا منى مع كل مشهد يمر بي ولا امر به إلاّ لَمحًا. إزاء ذلك التراكم الكونى الهائل صرت احسنى طفلا بائسا شاخ بالرغم منه. شاخ دون أن يتمكن حتى من النظر البسيط على محيط كان يراه قبل أن يتراءى له الآن.

من جديد اشترينا «قاتا».

القات «العُمَري» طعمه طري وطازج. له نكهة حمراء تصعد النَفَسَ فورا.

آه، الليل والظلمة التي غدت، سريعا، أليفة، والطريق الضيق الذى بدا وكأنه مسكون بإيحاءات شتى، والقات «العمري» المُتَبَس، و ...

أنصل «عدن»؟

•••

«يَريمّ» ووهادها الغاطسة في ظلمة الليل. وحده، قمرها الساطع يستقبلنا بحنان. لكأنه اعتلى السماء الكاشفة ليدلنا على الطريق. أتراه حسبنا قافلة من الحرير والبخور؟ أم تراه «عارف» الطريق الى عدن؟

أخذنا اتجاه «الضالع» ونحن نقصد «عدن». الجبال التي كانت تنبع من القاع بلا فواصل أو انقطاع سوّرتنا بظلمة فضية، نهبتها من القمر لتلقي بها علي الطريق، أمامنا طريق لم نكن نسير عليها بل كانت تسير هى فينا، ودليلها الى نفوسنا... واليمن فى الليل قمر.

•••

من «القب» هبطنا الى «الحَبيلَيْن». الكيلومتر ١ - ١. عدن تقترب منا.

فى «الجبيلين» قعدنا. «على» أكل خبزًا وفولاً وشايًا أبيض (بالحليب). وأنا أكلت خبزا ساخنا فقط. خبز الليل الخارج رأسًا من التنور. تنور بري يخبز عليه شاب يكاد ينكسر عندما يميل على النار. شاب عابس التوجه باستمرار. الرغيف الأول - الرغيف الثانى.. الشاب ينظر اليَّ بعجب. يرانى التَهم الأرغفة وأنا أكاد أكون سعيدًا. أتراه استشف ذلك من خلل لهب الليل وعرقه؟ أم ترانى كنت استقبل ما أعطانيه بلهفة اللذة التى نسيت الجوع؟

أنها المرة الثانية التى أتعشى فيها خبزًا ساختا يُخبَزُ امام عيني. الأولى كانت في «حي القاع» فى صنعاء، الحيّ اليهودى القديم. وفى المرتين كان الوقت ليلا.

•••

بالقرب منا جلس رجلان شاحبا الوجه والقوام. مجرد النظر اليهما يكاد يؤذيهما.

«على» بدا سعيداً وهو يكلمهما بلهجة «متعالية». سألهما عن «مدير الناحية». وعن نائبها فى البرلمان. وعن مكان الهاتف. وعن أحوال الناس. والرجلان يجيبان بإهتمام وهما يتطلعان مرة اليه ومرة إلىَّ، دون أن يمتعضا.

فجأة، قمنا ودخلناها. وبدأت السيارة البيضاء تلتهم الطريق، بِعصبية. كنت أسمعها تردد في أنينها المكتوم، ذلك الليل: عدن عدن عدن عدن.

•••

الساعة الثانية بعد منتصف الليل.

من جبال الشمال الشاهقة «المخيفة»، تلك الهامات الجبارة التى كانت ترتسم (أكاد أقول تبتسم) لي في ظلام الليل المضئ على الطريق، سقطنا، فجأة، فى السطح: فيِ شعاع من الأرض المرملة، المنبسطة بلا حدود.

وأبحث فى ضياء القمر (الذى لم يتركنا) حولى. الأرض المنبسطة كالإنسان البسيط: رؤيته فى متناول البصر، لكن محاولة فهمه لا تستحق العناء.

ماذا بقي غير أن نقطع الطريق حتى النهاية؟ من الطريق تعلمت أن أهمية المرئى لا تكمن فيه، فحسب، بل في العين التى تراه أيضًا.

واصير أرى، فى ضوء القمر المتواطئ، رملاً واعشابًا وشجيرات شتى، تتحدر معنا إلى الجنوب. فضاء فضي لامع وبلا خوف. صارت الأرض بحرًا، وصرت أبحث عن شواطئه فى البعيد. بحر ليلي ملأنى بالتوجس والحنين. بحر من الضوء المرميّ بكرم على الكون.

أرض - بحر تدفع المسافر إلى سفر أعمق وأشدّ. متى نصل عدن؟

الثالثة بعد منتصف الليل.

أخيرًا، وصلنا «مدائن» عدن! لا لن استريح قبل أن أكتشفها، هي الأخرى، ليلا.

عدن مُدُن لا مدينة واحدة. مدن وجبال يحيط بها البحر (أقصد تحيط بالبحر وتغريه): «خورٌ مكَسَّرٌ»، «المَعَلا»، «النواهى»، «الشيخ عثمان»، «عدن الصغرى»، «جزيرة العبيد»، «كرَيّترٌ»، و ...

ليل وجبال وبحر ومدن.

مدن، وبشر لطيفون يأكلون (ماذا يأكلون؟) فى ضوء القمر العدنى الآتى من الأعلى، المختلط بضوء البحر النابع من الأسفل.

يأكلون؟ أراهم يتمتعون بأكل لا أراه أنا، وهم ينبسطون على أتربة الطرقات الليلية الخالية إلاّ منهم.

جمال لا يقهر.

بكيت من النشوة فى عدن. نشوة بكماء لا تفسير لها ولا تبرير. لا، لن أنام قبل أن أمشى المدائن كلها ليلاً - قبل أن استحم في البحر بعيونى. لأول مرة، أدركت أن الحركة غامرةَ محدودة المتعة والإدراك.

وأن الرؤية الكاشفة، هي وحدها، القادرة على كليهما.

•••

أعود من جديد الى البحر. البحر مضطرب بهدوء فى عدن. الزبد الأبيض يتراكم بحياء على الحصى والتراب. أقف فى عراء الليل، لصقه، صامتاً وحزيناً. انظر. (الى أي الجهات كنت انظر؟)

ليس للبحر جهات. البحر كالصحراء (التي قذفت بي) تقصده، وبه، لا تقصد أحدًا. أقف فوقه، وأنام.

•••

عدن في النهار خانقة. لكأنها نبعت من الجحيم. من جحيم مبلل بالرذاذ. رؤوس الرجال فيها حُمّر. عيونهم مكحلة بالأسى والشوق. شوق تحسه دون أن تدرك مصدره أو منحاه.

شوق المُلّقى على شاطئ بعيد ينتظر السندباد.

•••

أمشيها نهارًا وأنا أغمض عيني حتى لا تختلط الصورتان: صورة النهار وصورة اللّيل.

أمشي الأسواق والحُوَيّرات. أتشرّبُ رائحة الأسماك والبحريات. عبر الفضاء الممتلىء بالناس والحاجات أرى، في البعيد، حركة الحيتان التى لا تكف عن الخروج من البحر والغوص فيه.

أرى وجوه النساء» السُمّر المذعورة، ذوات الأجساد الملفوفة بالعصيان، والعيون المتسابقة إلى المجهول. عيون تسبق الروح وتقود خطاها.

•••

رائحة الناس تمشى معهم، ولكن مستقلة عنهم، في عدن.

عدن هى المدينة الوحيدة التى ترى فيها رائحة الكائن قبل أن تراه. وعندما تراه، ترى، في الوقت نفسه، رائحته وهي تقف الى جانبه.

كائنات ثنائية الوجود، هي كائنات عدن. ماذا أفعل لتوحيدهما: لتوحيد الكائن ورائحته؟

•••

كنت أريد أن أغادرها، وفي الوقت نفسه، أريد أن أبقى فيها.

عدن تشدّنى، وعدن تردّنى. في عدن لم أتوصل، أبدا، إلى تحديد عاطفتى، ولا إلى تبديدها. صرت كائنًا مواربًا فى عدن. اتوطأ مع نفسى وضدها في آن. وكما رأيت رائحة كائناتها، كنت أرى «لوثتى» تقترب منى بالحاح. رأسي صارت تتهج نهجًا وجسدى نهجًا آخر. خيوط سرية لا تقاوم صارت تربطنى معها وفيها، مَنْ يخلصنى من عدن؟

«تريد أن تغادر؟» سألنى ببساطة وبلا تعقيد «علي» وهو ينظر ميتسمًا إلى الهرج المحيط بنا. واحسست به مستعدا للسفر فورًا.

هو الآخر، كان يقطر عرقًا وزيتًا في صباح عدن الواطئ والمدفون. مَنّ منا سيغادر عدن، بعد الآن؟

(٤)

من صنعاء، جئت ظلمة، وأعود اليها نورًا.

تركنا عدن «الخانقة»، فى الصباح نفسه متوجهين الى «تَعّز»، تعز الرائعة ذات الجبال المرصوصة، والرقيّ المستمر الى الغيم.

كيف يسكن الناس قممًا لا يمكن الوصول، إليها بلا أجنحة؟ جبل «صَبّر» الهائل المحشوّ بأعشاش المساكن، الراكب بعضها فوق بعض، يهيمن على فضاء «تعز» المملوء نورًا.

«قلعة القاهرة» العظمى تتوسطها فوق جبل متوحد كعلَم من أعلام الكون.

تَعّز» أو تَعزُّعلى مَن يريد الاستيلاء عليها؟ من يدرى؟ ثمة أسماء لا تكفى حياة واحدة لادراكها، ومنها هذه الـ «تعز».

•••

الساعة الثالثة ظهرًا.

المدينة مليئة بالحركة والضوء. الجبال حولها تبدو هادئة وسعيدة. لكأنها تخبيء نور الشمس للغروب. في مقابل «القاهرة» أقف. أقف منتشيًا بلا حراك. لكأننى أُدبّرُ امرًا.

أريد أن اتَشبّعَ بالمشهد العظيم قبل أن يسرقه الزمن من عينيّ.

•••

بعد جحيم عدن، نسيم «تعز».

إذا كانت عدن ساخنة وغاطسة فى الأرض، فإن «تعز» منعشة وخارجة منها.

لا، لم أعد أريد أن أرى شيئا.

أغمض عيني على الطريق، بعد أن تركنا فضاء «تعز»، لكن «عليا» سيجبرنى على فتحهما: «انظرّ! انظرّ»، انظرُ أي شئ، أجبتُ وأنا لازلت أغمض عينى. «انها الساعة السادسة، وهاذي هي مدينة إبّ».

«إبّ»؟ أَهَبُّ من غَمّضَتي المصطنعة على الطريق. أرى، ولا أرى شيئا. كيف يمكن للكائن أن يستوعب الطبيعة من مجرد النظر اليها؟

قمم، وقمم أخرى أعلى، وأعشاب، وقرى معلقة فى الريح. الطريق يتلوّى، كارهًا، وهو يصعد إلى السماء. لَمْس الغيم يبدو في متناول اليد. وفعلاً، أصير ألمسه، ونحن نخترقه ذاهلين.

•••

كنا نصعد، حقًا، الى السماء، ولكن هل نهبط منها؟

«الطريق طويل ـ طويل»، قال «علي». وأضاف: «طويل على الصاعد، لا على النازل». طويل؟ سألته. «سنظل نصعد حتى الغروب» «اضاف. ولكن متى يحين الغروب ونحن في متناول الشمس؟ ولأنه حسب تعجبى خوفًا، قال: «سنظل نصعد حتى القمر، حتى طلوعه» ودون أن ينظر إلى (وهل يسمح له الطريق بذلك) أضاف: «وسنهبط من جهة الغيم الأخرى».

•••

«لنخَزّن قبل أن نصل الى القمر، قال «على» وهو يقدم لي ربطة من «القات الصبّرى» الرائع (نسبة الى جبل صبر)، ويأخذ واحدة لنفسه. قات الجبل الذائق حيث لطعمه نكهة الأعشاب البرية وسماحتها (صارت خضرته الندية تثير شغفي ولُواعى). وفورًا، نبدأ التخزين.

«أنظر»! يقول «علي» من جديد، متباهيًا. يقول، وهو يشير أمامنا، تمامًا، حيث بدا القمر تحت مستوى النظر.

•••

«طبيعة» عجيبة كانت تغمرني بوهجها ورؤاها.

طبيعة تتمرد على نفسها قبل أن يصل شوقها اليك. طبيعة مسكونة بالتناقض والاحتدام.

التناقض العميق بين الاعلى والاسفل، بين الناتئ والمدوّر، بين الهابط والصاعد، بين الهادئ والصاخب، بين الصامت واللاهج، بين المحكّي والمسكوت (-) بين المنظور والمستور، هو الذى يشحنها بتمرد غير معلن مع انه يكاد يكون مرئيًا.

لابد أن التمرد الأول ولد هنا، وهنا فقط. ومن هنا انتقلت صورته اللغوية الى «وهاد الشام» و «سواد العراق». جذوره بقيت هنا، ولَغْوُه صار هناك. عنجهية الطبيعة، هنا، والصلف فى تشددها يجعلنا ندرك ما لا يمكن إدراكه بالتنظير. والطبيعة.. لا تفصحُ عن نفسها، فحسب، بل عن كائناتها، ايضا. ماذا تنتج الطبيعة غير روح الكائن؟

# مراكش جامع الفنا

حلمتُ، ذات يوم، فى «دمشق» أننى لم أعد مواطنا سوريًا. ولم أفهم معنى حلمي، هذا، حتى بعد أن حققته، منذ زمن طويل.

اليوم، عندما نَطّ رجل الثعابين ليحيط عنقى، في غفلة مني، بثعبانه المُتموج كالسم، ربما أكون فهمتُ.

ماذا يعنى العالم بلا اختلاجات، ولا صرصرة؟ ماذا يعنى بلا اختلافات - سوى الموت؟

هنا، شبعت أزقة وغبارا. أأكون بحثت، منذ البدء، عن هذا ولم أجده الا اليوم؟ غبار «دمشق» له شكل آخر، شكل الضوء

الراكد المتسلل من كوّة فى أعلى الجدار. وليس ثمة ثعابين ترجّ الجسد وتُرْعِش الروح. ولا تبرق العيون عند التقائها بعيون أخرى، بل تَلَبُّد، مختبئة تحت أجفانها التي تعودت الأنسدال.

هنا، شعرت باختلافي، وائتلافي.. عربى وله شعر طويل. النسوة ترى بعجب إلىّ وهى تبتسم لي. ويلحق بي الوِلْدان والحنافيش. ويبتهج لمرورى مرقّصو القِرَدة. وينادى عليَّ مدوّبو الضَبّ والزواحف.

كان لوجودى ـ هنا طعم الولادة من جديد. وهل للحياة من معنى آخر غير أن تولد متنكرين ومتكررين؟ هل ثمة مَنْ ينكر هذا؟ بلى؟ اعرف مّن سينكره جيدًا. (ـ) ولكن بين اسراب الذباب المتطاير، وأكوام القَذار المتكاثر، لا يمكن لكَ ان ترد على مَنْ لا يوافقكَ الرأى إلا بابتسامة لها طعم الشماتة واللامبالاة.

لستُ هنا لإملاء الحقيقة، ولا لابتكار الواقع. في عالم مثل هذا، لا يمكن للحياة ان تُعاش وهمًا.

لا يمكن لها إلا أن تعاش صدّقًا. صدق يكاد جوهره يماثل جوهر الوعى: صدق التلامس والاختلاط.

اختلاط لم تخطط له الصدفة، ولم تستبعده، أيضًا.

اختلاط يبحث عن المتعة، لا عن الجدوى. ماذا تريد الحياة أكثر من هذا؟

في عيون النساء السود، وحدها، كنت أجد نفسي. كانت النظرات الحيّة المُطالبِة تثير شغفى. الحسية الممتزجة بالعرق والغبار تؤكد أن للكائن ابعادًا لا تحصى، وأن أهمها هو بُعْد التلامس (ولكن اين؟).

عيون الرجال كانت تبدو لي «بلا معنى». عيون فارغة ومفتوحة بإستمرار. لا تعرفها تنظر مَنْ. وإذا نظرتكَ، نظرت بحسد واستعلاء (وما الداعى؟) كابوس الحياة اليومي، وتسلط النساء التاريخى عليهم، سبب ذلك؟

في الزقاق الخلفى للساحة مررت بالحمام: ذكريات الحجر والطين، والماء الغاسلِ، والابدان المغسولة بالأنين. بابه عتيق. وعليه نقوش مهترئة: «للرجال ليلاً ونهارًا. وللنساء نهارا فقط». (اين تُحَبس النساء فى الليل؟).

من الأزقة الى الساحة من جديد.

«رجل السيوف الصدئة»، نحيف وأعمى، تساعده امرأة مفتوحة العينين (كالعادة) يحبس بنتاً لطيفة سمراء (برغم الحرارة والالتهاب) فى صندوق خشبى محكم السد، مسوّر

بسيور من الحديد. صندوق عال، ذو فتحات متوازية، تخترقها سيوفه المهترئة بلا مبالاة. تمر السيوف حول البنت، أو عبرها (من يدرى؟).

في نهاية المشهد تخرج البنت متباهية، رافعة زنديها الجميلين، وعلى معصميها آثار القيود الوهمية (هل ثمة ـ فى الحقيقة ـ قيود وهمية ؟). وبعد هنيهة تبدأ السير بتبختر، مبرزة بتحد نهديها الصاعقين، وهى تتطلع من عين الى اخرى، دون أن تفكر بشئ آخر غير ذاتها، كما خطر لى.

الرجل الأعمى، تحت انظار المرأةالتي لازالت تحتفظ بعينها، يعيد «اللعبة» بسذاجة تقهر العقل. يعيدها كل يوم في الساحة نفسها، أمام الجمهور المبهور نفسه، دون أن يهتم أحد بسر اللعبة أو بجدواها.

أو ليست اللعبة، في النهاية، هي الإيمان بالعبث؟ الإيمان الواعى به! ما يهمُّ، بعد ذلك، ما يجرى؟ ساحة «جامع الفنا» مرة أخرى. وهذه المرة لسبب آخر.

بين فوانيس الليل الغازيّة، ووجوه البشر المتماثلة الى حد الرطانة، أبحث عنه: الرقم ٣٩. واسمه محمد.

لماذا ابحث عنه؟ البارحة ليلا كنت جائعًا، وكانت الساحة المراكشية مأوى للحلم والاكتفاء. كان ينقصني نصف درهم. ولم يبخل عليّ محمد:

- احفظ الرقم. أشار الى، أعلى، مادًا أصبعه في سحب الأذخنة والروائح، وهو يضيف: ٣٩.

ونظرتُ إلى حيث يشير، وأنا أحس برأسي ملفوفًا بعمامة من الدخان، ورددت وراءه: ٣٩.

- وأنا محمد. قال بنوع من التحبب.

- قرأت أسمك، قلت.

ضحك بمودة حتى بانت أسنانه السود المكسرة، برغم انه لم يتجاوز العشرين، بعد، واهتز جسده الأملس، وهو يسأل بحياء:

- تقرأ العربية؟

- اقرؤها. قلت.

- الحمد لله. قَطَريّ؟

- لا. سوري.

وفجأة، مدد أصبعه النحيل، المملوء بالشحم المشويّ، وهو يقول بحماس (وكأنه يريد أن يتأكد من حلّ لغز كان قد اقتنع بأنه قد أصاب في حلّه):

- لكنك لا تعيش في سوريا .

وعندما رآنى اهجم، فى آخر الليل، على ما ناولنى من طعام صامتًا (وربما رأى الحزن في عينّى) أضاف متأسفا :

- سامحنى. سامح قلة أدبى. قال ذلك، وهو يقدم لى شايًا لم أطلبه.

يوم وليلة في الساحة خير من مسير سنة.

ساحة تختصر مدينة كاملة. ومدينة تختصر عالمًا بأكمله. للنهار فيها رائحة الروث، ولليل فيها رائحة الشواء.

فهمتُ كل شىء (أو كدت) الا الروث؛ روث متناثر فى كل مكان، لا يشكل خلفية للمشهد، بل أرضية أساسية له لهذا اهديتُ أول كتاب لي اليه؟ ولذا، (-) ربما، أحببت هذه المدينة التي ولجتها قبل قليل.

والحب إما أن يكون حبًا كبيرًا بعد قليل من الوقت، أو هو سيكون إلفة مبتذلة محسوبة خطأ عليه. وهل يألف الكائن مدينة حمراء؟

من الجراحة التنظيرية، التى عقد مؤتمرها الأخير فى مراكش، وهي أهم قفزة جراحية تكنولوجية في هذا القرن،

إلى ثعابين الساحة التي تلعب «الطَمْطَما» مع مربيها: التنوع العذب للحياة.

الساعة الآن الواحدة ظهرًا. شمس حمراء متسلطة. وجوه محشوة بالوحشة والاستطراد. وجوه تقرأأسرارها في الريح الذى يفصلك عنها. وبدأت اكتب شعرى القديم: «أحب هذه الوجوه، وتلك لا... وارتعد/ عند اللقاء بهذه، وتلك لا...) وجوه تقنعك بأن الكائن ليس حجرًا ولا وظيفة. من أين كانت تنبع تلك المعاني كلها فى وجوه هؤلاء البشر الداشرين؟

وحدى اقف في فضائها وحماها.

الساحة التي كانت تعج بالكوبرات السود، ذوات الرؤس المسطحة اللطيفة، وبالثعابين التى تثير الضحك بحركاتها المترددة الخجولة، والتُميّسيِحات القزمة النائمة بكسل على الأرض، والقُريدات المذنبة التى تحملق فى وجوه المارة بعدائية مكتومة (تتمنى لو تمزقها إربًا، وهي تقفز عاليًا فى الريح) والنسوة العِجاز، ذوات الحركات المتهتكة الحَسوسة، ذلك، كله، اختفى، فجأة.

لكأن الشمس طردت الحياة من الأرض.

في الساحة التى اقفرت خلال ثوان، لم يبق الا عاصرو البرتقال المتصافون على حوافها، والروث المتناثر، وأنا الذي لم أتوقف عن السير منذ البارحة ليلاً.

عمّن أدوّر، ومَنْ سألقى؟ دمشق؟

وهذا البشر التائه فى بلاده؟

دخلتُ أحدًا وخرجت أحدًا آخر. هنا، لا أحد يزعجك، ولا يؤذيك، لكن الناس، كلها، تلتصق بك.

تلتصق. كما يلتصق العسل بالذباب التائه فى بلاده؟

يلتصقون دون أن تعرف سبب الالتصاق ولا جدواه. لكأنهم يأنسون بلمسكَ. يقاربونكَ، وهم يبتسمون عفوًا «وبلا ثمن». «موستاش» ينادونك، ويبتهجون، وتبتهج، انت الآخر، بدورك.

لِمَ تعقّد الحياة وهى فى متناول اليد؟ ولِمَ نُعسرّها وهى بسيطة؟ ولكن، كيف يمكن لمن لم يتحرر أن يتحرك؟ كيف يمكن له ان يدرك نكهة العالم وفُروقاته؟

مضى النهار سريعًا. كيف مضى النهار؟ الفرق بين نهار مراكش ونهار باريس؟ كالفرق بين نهار من يعمل ونهار من يتأمل.

إذا كـان لابد من العـمل لصنع العـالم، فـإن التـأمل ضـروري لإدراكـه. ولكـن، ألا يكون ذلك، كله، خـدعـة؟ أي شـيء يمكن أن يُدرَكَ فى عالم يحيا بأحشائه؟

مدينة للنهار، وأخرى لليل.

اخـتـفـت مـدينة القـردة والثـعـابين، وولدت مـدينة الأضـواء والفوانيس.

أعـود إلى السـاحـة من جـديد. الرقم: ٣٩. والاسم: مـحـمـد. ألقاه؟ الحشد هائل. صخب وضوضاء.

حفـلات مـلاكـمـة «برية» بين صـبيـة لم يبلغـوا العـاشـرة من العـمـر. مـلاكـمـة جـمـعت حـولهـا جـمـعـا كـبيـرا. الحَكَم الأهتَم «يُسـفِر» عن لثـتـه السـوداء اللينة. يعطى إشـارة البـدء، وإشـارة الإنتهاء. يمنع الصـبية من «التضارب» من جـديد إلا إذا تجمعت فى كفه بضع دراهم ولكن من يعطى الدراهم التي لا يملك منها «شروى نقيـر» (العبارة الوحيدة التى تناسب الحال) لمن لا يملك منها شيئا؟

الطفـلان ينظـران بخفـر واستعطـاف إلى الجمهور. والجـمهور ينظـر اليهما بلا اشفاق.

وهل تجوز الشفقة على كائن يحيا مصيره بعنف؟

أضيع فى الدخان.

- رائحة الشواء تلون الأفق بلونها الفضى الحارق وتُطيّبُه.

يشوون الاطحِلَة والمصارين. وعلى الجمر يُقلّبون قُطيعات من اللحم ونُثارًا من الاحشاء، وهم يقصونها جراحيًا (عجبًا) بمقصات بيض حادة. مقصات يحركونها بمهارة، لا تُقاربها إلا مهارة مَن ابتدع وسيلة عيشه بيديه.

الساحة صارت مطعماً كبيرًا، وسكانها أكَلَة وشرّابون. صحونهم ورق أزرق. وشوكاتهم أصابع خمس ملّحوسة. وعلى وجوههم ترتسم علائم التلذذ، وهم يتمَطّقون.

أصابونى بالجوع. لكأنني لمْ آكل أبدًا من قبل. أحسستُ، فعلا، اننى نسيت الأكلِ الماضي، كله، من شدة الشهوة التى أصابتنى. ولكن، من أى اكْل آكُلُ؟ ومن أى يد؟ كنتُ أَلْتَهم المشهد، وأَتجنب الطعام، ولذلك، ربما، لمْ أكن أشبع.

من حلبة الملاكمة الى حلبة الرقص العفوى. رجل وامرأة يتغالبان رقصا. موسيقى بدائية حادة، لكنها ليست مزعجة. الرجل شريان ووريد. لا يكسو عظمه سوى الجلد والعروق. المرأة كتلة من لحم متكدّس، مفاصلها تين، وأردافها حمم. يخترقها الرقص من قدميها، صاعدًا فيها كالسنان. في

جسدها أكثر من بؤرة للحركة والاهتزاز. الرجل يطير عاليا في الجو. يلقى بنفسه على الأرض دون أن يسقط عليها. يتلّوى حول محاوره وفق نظام لا يُقهر.

هى ترقص فعلا. وهو يسيل رقصا.

والمرء يبدع، مضطرا، من السَغَب.

فى الساحة، نفسها، يشرح الرجل العَضيل لمن يحيطون به، وأكثرهم من المسنين الذين فقدوا اسنانهم منذ زمن طويل، يشرح لهم كيف يشفى الأمراض، وكيف يُقّوم الأعضاء... ويعلمهم (الطريقة المثالية) بادئا من اطراف الأصابع صاعدًا على الساق مارا بالركبة ومشتقاتها، (لا يمكن للسالك أن يضيع) ومن ثم ملتقى البرزخين. هناك. عليه ان يمكث قليلا، مبجلا جمال الجسد وجلاله.

كان يشرح لهم بقوله وحركاته. يتمدد على ظهره، متخذا سيماء امرأة تتمنّع، قبل أن تلين، مانحة لذائذ جسدها وأطيابه لمن يعرف كيف يستخرجها منه.

اعجبتنى حماسة الشرح وحلاوته، حتى اننى لم أكذبّه عندما ادعى أنه يشفى الزائدة الملتهبة بزجاجاته (التى لم اشتَرِ بعضا منها). ولم يُكذبّه، ايضًا، (كما أظن) جمع الشيوخ

المهترئين الذين كانوا يصغون اليه بشغف، والندم ينهش قلوبهم على ما لم يفعلوه فى صباهم.

فى الساحة يبدأ المرء الواصل توّا كبيرًا . كبيرًا، ويصغر. تُضئله ابتسامات الناس وعيونهم الباحثة عن كل شيء. لامبالاة «باريس» تغدو حلما سيئا وقديما . هنا، يحيط بك العالم كما تحيط أم بأبنائها. مَنْ يستطيع أن يخفي سرّه عن أمه؟

عندما شرح لى رجل الكوبرا والثعابين الرابضة أمامه كالولْدان المهذبين، كيف يصطادها، وكيف يطعمها ويسقيها، كان يحكى بخيلاء، وكأنه قائد جيش منتصر يشرح خططه والاعيبه.

كان يحكى وهو يحدق بى من أعلى الى أسفل، ومن أسفل إلى أعلى، باحثا عن «بابى»، كما صرت اعرف الآن. آخيرا مدّ يده الى، لأضيع فيها شيئا (مقابل الشرح) ووضعت فيها درهما، قذف به فى الريح، رأسا، الى فضاء «سى بن عيسى» مُروضّ الأفاعى، وداريء سمومها، كما قال.

ودون أن يتحرك (وأكاد أقول حتى...) لقَفَ «سي بن عيسى» الدرهم الطائر بمهارة يحسده عليها الصقر. لقفه تحت أنظار الكوبرا المهيبة ذات العنق الجميل الراجف، وهي ترمقه

بإعجاب. وكالبرق اختفى الدرهم تحت الرقعة المفروشة على القاع.

وأخذتنى نوبة من السعادة والضحك، وأنا اذوب فى الضوء: يجب أن تكون عربياً لكى تفهم هذا. وعدته أن أعود، ولم أعد. ولِمَ أعود؟ لست مضطرا للوفاء بوعدي.

المساء الأخير. ظهر القمر خجلاً وبعيدًا. الساحة مزدحمة كالعادة. خلائط الروائح والاحماض تملأ أنفى. رؤوس، أقدا، وانا اتأرجح بينها كالرنين.

السواح يصورون بآلاتهم، وأنا أصوّر بقلبى: بشر جعلتهم المعاناة لطفاء وأذكياء. ماذا يريدون أكثر من ذلك؟ العيش بسلام.

بشر تعرفهم منذ أن تراهم. تعرف نوع الكائن وجوهره، رأساً، وكأنك تعرفه منذ سنين. وهو ما يجعل هذا العالم مفرحا رغم بؤسه.

في حُمّى الساحة وجوّها، سؤال واحد كان يستولي على ذاتي: أيكون بإمكاني، ذات يوم، أن ابدأ حياة جديدة؟ وإنّ حصل هذا، هل سيكون ممكنا أن أصير واحدًا منهم؟ وإذا لم

يكن الجواب متعذرًا كما هو متوقع (واسوأ الأمور المتوقع منها)، فإنه، بالتأكيد، سيكون نفيًا.

أى جدوى، إذن، في حياة لا يمكن، بعد اليوم، تبديلها؟ حياة غدت كالنفق الذى صرفنا جهدًا كبيًا لإنجازه، وقضينا وقتًا طويلا فى سكناه، حتى صار خروجنا منه مستحيلا.

اللعنة.

# صخرة الأكروبول المقدسة

يصعد الجبل بعد عشرين قرناً الرجل الذى جاء من «بادية الشام». يصعده بشغف غامر، وكأنه يصعد الجلجلة. يصعده باحثاً عنهم: عن آبائه الذين عرفهم أكثر مما عرف أباه.

كان يهدىء نفسه وهو يصعد الدروب الحجرية، وحيداً. دروب «الصخرة» القابعة فى أعالى الكون. يهدئها، كما كان يفعل، قبل عشرين عاماً، في «دمشق»، حيث كان يتمتم، فى قصة «الانزلاق نحو الداخل» : «أهدأ . أهدأ»؟ قبل أن يقذف بجسده الفائر على جسدها الذى كان يفور.

كان يعرف أن زيارة مثل هذه ليست لاكتشاف الامكنة، وإنما لإعادة اكتشاف الذات. كيف يمكنه أن يهدأ، إذن؟

•••

الآن، يعيد الأمر نفسه، وهو يقف تحت «الصخرة المقدسة». يريد أن يكتشفها من أسفل قبل أن يكتشفها من أعلى. لكن حركة «أثينا» الهائجة تكاد تعكر كل شيء.

في خضم تلك الحركة التي لا تهدأ، تنهض التماثيل على أعمدة رخامية شاهقة. لكأنها تحاول أن تنقذ «ناسها» من التطفل، ولا تقدر. مَنْ هذا الرجل الجميل الواقف عارياً فى الضوء؟ ومَنْ هى تلك الكائنات التى تختلط خلفه بلا حدود، بلا حدود بين أنائها وهالاتها؟ يتساءل الرجل القادم من بادية الشام! لا، لم يكن يتساءل. كان يقرر بتصميم، زادته روعة المكان، حِدة: «منذ الآن، عليك أن تكون كما أنتَ، أنت، تماماً، كما تحب أن تكون. وتلك أقل خسارة ذاتية ممكنة».

•••

أعمدة «الأولَمّب»، حيث معبد «زيوس» العظيم، تنتصب تحت أقدام الصخرة المقدسة، وكأنها تريد أن تصد عنها النظرات المريبة، المنطلقة من الجنوب.

بين هذه الأعمدة الواقفة بجلال، أقف، مأخوذاً بقوة التاريخ وسطوته، أنظر. ويتحول النظر، سريعاً إلى كلام. إلى كلام بليغ وصامت. وأصير أحفّ الأعمدة من أسفل إلى أعلى. أربط بين

زاوية النظر ومرأى «الأكروبول». أحاول أن أنفذ من الريبة إلى اليقين. أن أقفز من إبط «العَلْوَة» إلى رباها. أن أبعث «زيوس» حَيًا في هذه البقعة الخالية من الضجة، في صباح «أثينا» الملىء بالضوء والدعابات.

بالقرب مني، تتراكم كتل اليونانيين الذين ينتظرون الباص، «على أحرّ من الجمر». عيونهم مليئة بالبلادة واليأس. لكأنهم رأوا كل شيء، وعرفوه. وأحسنتني سعيداً. سعيد لأنه مازال أمامي الكثير لأكتشفه وأراه.

•••

عند منحدر الصخرة المقدسة الغربي يتربع «الآغورا» بجلال (لكأنه يريد أن يحميها من الجهة الأخرى). ينظر إليها عطوفاً، وهي لا تنظر إليه. هي تتطلع، بعيداً، نحو البحر. البحر الذي تلمع مياهه كالفضة تحت سطوة الشمس الآخذة بالأفول.

«الأكروبول» المتسلطن فوقها لا يتطلع إلى أسفل، ولا إلى الجهات المحيطة به. الأشعة المنطلقة منه تخترق الفضاء أفقياً. هكذا، تسقط في البحر الذي سيأخذها إلى مجاهل الليل. هي مغلقة عن كل شيء إلاّ عنه. وهو بدلاً من أن يأتي إليها يذهب عنها بعيداً. ومع ذلك، تظل تلاحقه دون أن تترك مكانها. ولأنه

لا يستطيع أن يستقل عنها فهى مطمئنة إليه. مَدّه وجَزْره مرئيان منها بلا خفوت. ولأنها تجلّه كثيراً تظل تصغى إليه: لا تتأقف منه عندما ينأى، مزمجراٍ، عنها. وتسعد، كثيراً عندما يتقرب إليها، ناثرًا فوقها رذاذه من جديد.

•••

«صخرة الأكروبول» هضبة محاطة بهضاب أخرى من جميع الجهات. وحده، البحر، يلمع غربها تحت غمام الشمس التي تبتعد بهدوء.

واقفاً فوقها يعتقد الكائن أنه يسيطر على عناصر الطبيعة. كلها: الضوء والريح والحجر والشجر المبثوث حولها فى الهضاب وأثير الإنسانية الممزوج بالنور المتلألئ فى المحيط.

هنا، يمكن أن نفهم بسهولة لم اعتبرت، فى القرون الأولى، «سرة العالم القديم(-)» وكيف شعت منها أنوار فكر شامل لازال يسطع إلى الآن. إنها خليط عجيب من عناصر الطبيعة، حيث كل عنصر يبرز أفضل ما فيه من مزايا. هكذا نشعر، بمجرد النظر فيما حولنا، بسعادة عظمى، وكأننا نحن الذين صنعناه.

في هذا الخليط «الناطق»، والذي لا يحث إلا على الفرح والتأمل، يقف الرجل القادم من «بادية الشام»، متبصراً، وهو

يقاوم شيئاً لا يدركه. «شيئ» يريد أن يدفعه إلى هاوية البكاء، ولا يصل. وفجأة يصير يغنى: «أصخرة أنا مالى لا تحركنى/ هذى البحار ولاهذى الأهاضيب؟

•••

برغم مطر الصيف اللذيذ، ذباب السياج يتكاثر حول «الصخرة المقدسة». يحاول المطر أن يصدّهم عنها ولا ينجح. يريدونها بأى ثمن، وهى لا تريد أحداً منهم. يتغالبون في ولوجها، وكأنهم سيلجون بطون أمهاتهم التى حرموا، منذ الولادة منها.

بشر مختلف وفضاء واحد. فضاء يجسد الإنسجام بين «المادة والروح» (وكأنهما شيئان منفصلان). وأكاد أسمعهم يتساءلون بغبطة: لِمَ يبنى الإنسان بمثل هذه الروعة، فيتضاءل أمام ما بناه؟

تحت أعمدتها العظمى وتماثيلها الهائلة يزحف الناس بلا تعيين. يزحفون وبهم مَسٌّ من نشوة غامضة، لكنها آسرة. نشوة التماهى مع التاريخ فى مكانه.

•••

عمّا جئتُ أبحث؟ عن الجراحة (حيث ينعقد مؤتمرها الأوروبى الذى أشارك فيه) أم عن «أثينا» الأولى وأخلافها؟

كنت أحسنى أتأرجح بين التاريخين: الغابر والحاضر. لا، ليس للتاريخ النكهة نفسها، ولا المقام نفسه.

كنت أحاول أن أخترق المدينة الحالية إلى أخرى غيرها. لكن المدن كالكائنات، لا أحد يعوض أحدًا آخر. لماذا لا ألتمس الحجر، إذن؟

منذ البدء، كانت تشغلنى فكرة ـ هاجس: هل للأمكنة علاقة بالفكر الذى يتكوّن فيها؟ وكان الجواب مكتوباً على لوح الطبيعة أمامى: هضاب عظمى تطلُّ على بحار بلا حدود، وضوء لا يعمى الرؤية بل يجلوها، وقاع تنبت العشب كما تنبت المرمر، ألا يكفى هذا «لشقرطة» المكان و «فلطنته»؟



فى «بلاكا» (حى أثينا اللاتينى)، وفى شارع بلا اسم (بلا اسم أعرف أن أقرأه) جلستُ. جلستُ قرب الليل من التعب والذهول. تحيط بى وجوه بلا تقاسيم. وأعضاء بشر لا يتكلمون. في «بلاكا» تتقاطع الهيئات بلا سبب. وأكاد أقول بلا

متعة أيضاً. لكأن الصخرة امتصت كل طاقة فيهم، ولم تترك لـ «بلاكا» إلاّ الهياكل والقشور.

في «الكيونى»، مقهاي المفضل، جلستُ أقرأ: «منذ القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد، كانت الصخرة مأهولة. وتاريخها مرتبط بتاريخ المدينة - الدولة الأثينية، التي ستتأسس فوقها، فيما بعد... والتى ستزدهر، بشكل خاص، فى القرنين السادس والخامس ق. م.

ومنذ القرن التاسع عشر ق. م شيد الأيونيون فوقها أول قصر كبير وهم الذين جاؤوا بعبادة الآلهة الجميلة، المتكئة على عصاها، (أثينا) التي بنوا لها معبداً فوقها ..».

الرجل الأسمر، ذو الشعر الأسود الطويل، سيقطع القراءة، فوراً. يقطعها وقوفه العابس فوقى. أنظره، أنا الآخر، مكفهراً وبلا كلام. أخيراً، يبتسم، وأبتسم أنا أيضاً، وأنا أقول: «كهوّة بليزّ». فأنا لم أكن أعرف اليونانية، وهو لم يكن يعرف لغة غيرها، ما جدوى الاجتهاد، إذن؟

•••

منذ أن يبتعد ذو الشعر الأسود الطويل، أعود إلى القراءة، من جديد: «لم تكن صخرة الأكروبول المقدسة أكبر الهضاب،

ولا أعلاها. فوقها شيّدت معابد أخرى وقصور، خلال حقب متلاحقة. ومن أهم ما شيد على الصخرة «الأوديون» و«ديونيسوس» فى القرن السادس قبل الميلاد. وكان يتسع لـ : ١٧٠٠٠ مشاهد. فيه قدمت أعمال التراجيديين الكبار مثل: «سوفوكليس» و «أوريبيدس»، وأعمال الكوميدى الخالد «إريستوفان».

وعندما احتلها الفرس فى القرن الخامس ق.م. دمروا كل ما شيد فوقها. وقد أعاد الأيونيون بناء ما دمر عندما عادوا إليها، بعد احتلال الفرس القصير لها، و ... «ومن جديد، سيقطع القراءة وصول الرجل الأسمر، حاملاً ما طلبت، عابساً وكأنه نسى أنه ابتسم منذ قليل.

•••

علاقة حسّية تربطك بهذه الصخرة منذ أن تراها. تصعدها وأنت تتنفس بهدوء (دون سبب)، وكأنك تلامس بأنفاسك الخلود. أقدامك لا تدوس الأرض وإنما تتبارك بالتاريخ.

أركانها تتفرج بودّ أمامك وأنت تأتيها. تدخل فيها فلا ترغب أن تخرج منها أبداً. وتخرج منها وبك شوق آخر للدخول إليها من جديد. لكأن تماسك معها لا يزيدك إلا تعلقاً بها،

تعلقاً بفضاء جوال، مع أنه ساكن، وبتاريخ وَلىّ، مع أنه حاضر فيكَ.

عظمة الشمس وسطوتها لا تلهبها بل تغويها. وجودك فيها لا يزيدها احتقاناً وإنما روعة. يفجر في أحجارها ما خبأته منذ قرون.

لا تظهر غير ما تُبْطن. تمتص توتر الكائنات التي تلجها بلا ابتذال. وبلا عدائية تعيدهم من حيث أتوا راضين. أو ليست هى التاريخ وقد تجسد مكاناً؟ وهل ثمة معنى لتاريخ بلا مكان؟

•••

في الطريق إلى «سونيون»، وهي آخر هضبة جنوب الصخرة المقدسة (أو الهضاب جنوبها) تتناثر فوق وجه البحر فقاعات الأرض التى يسمونها: جُزراً، جزر هى، فى الحقيقة، عيون الأرض الغاطسة تحت الماء منذ الأزل. عيونها التي تحاول أن تتنفس منها، وكأنها تريد أن تتمرد على البحر الذي يكتم أنفاسها منذ أن كان الكوكب ماء.

في «سونيون» يعلو، معبد «بوسيدبون»، إله البحر الذي يحرس الصخرة المقدسة من الجنوب. «بوسيديون» يقف فوق البحر مباشرة. يقف بأبهة خارقة منه ترى الشمس بين يديك

والقمر. وهو يقسم البحر، الذى هو إلهه، إلى قسمين: بحر إيجه على يمينه، وعلى يساره البحر الأيونى. بحران لإله واحد. وهم كلهم لحماية الصخرة المقدسة.

•••

فى «سونيون»، ثمة لغز لا يفسر، يملأ الفضاء المحيط بمعبد «بوسيديون». لغز تساهم فيه الأرض والبحر والفكر الذى نشأ بينهما. لكأن ذبذبة الطبيعية، التى تبدو سعيدة باجتماع عناصرها الأساسية في فضاء واحد، لازالت تحمل إشارات «سقراط» وشروحات «أفلاطون».

حتى المرمر المنثور حول معبد إله البحر له سحر خاص (-) مرمر محبب (ليس أملس تمامًا) وقد جعلوه هكذا لأنه، وحده، قادر على مقاومة هواء البحر المالح. مرمر يكاد يشرح لنا تاريخه الخاص. وأي عجب فى ذلك؟ لم يتأمل الكائن الحجر، لو لم يكن للحجر لغة وبيان؟

•••

في «سونيون»، نكتشف بسهولة كيف يتآمر البحر مع الأرض ليعطيها بعض نوره، ويأخذ منها بعض هدوئها ورساها.

نكتشف؟ نتساءل بالأحرى: ماذا يريد البحر أن يقول للأرض التي تراقبه عن كثب وبلا انقطاع؟ وماذا تقول الأرض

للبحـر الذي يريد أن ينـأى عنها ولا يقـدر؟ ولِمَ تتواطأ الشمس معهما لتغرب بأبهة وكأنها لن تشـرق، أبداً، من بعد؟

غـروب الشـمس في «سونيون» يجـعل أعمـدة المعـبد تحكي. يجـعلهـا تـشـرح بلغـة الضـوء المـرتمى فى البـحـر، كـيف خلّص «بوسـيـديون» (أثينا) من سيطرة (كـريت) عليهـا، وأنهي التـهـام «مينوتور» الكريتيي لأبناء الأثينيين. وعندمـا تندفن الشمس فى ميـاه البـحـر التى لا تحصـى، يصـيـر المعـبد يبكى يبكي. على مـا حلّ به عنـدمـا تصـدى للفـرس الذين دمـروه، وهم في طريقـهم نحو الشمال.

هـذا الغـروب الـذي عـشـقـه «اللـورد بايرون»، حتى مـات فـيـه، هو الذي يجعل النفس تمتلىء بارتجاجات لا تدرك.

كيف لا يشـتـعل الكائن وجـداً، وقد اسـتـقـر أمـامـه كل شـيء: الضـوء والمسـافـة والضـوء وظَلّ الريح، وحده، طليقـاً، يذهب مع الموج، وبه يعود؟

•••

هنـا، لا يحاول المرء أن يفكّ غـموض شيء، ولا غـموض أحد. هنا، كل شىء قـابل للفـهم (إن لم يكن مفـهومـاً ببسـاطة). عنصر الذات يبدو بشكل عفـوي، جزءاً من عناصـر الطبيـعـة الأخـرى.

بلاغة الطبيعة وانسجام وحداتها يلغي تعقيدها المصطنع الذي تكابده بلا سبب: تعقيد فارغ وبلا أفق.

هنا تدرك أن خدعةالحداثة الكبرى تكمن في محاولتها خلق بنى وهمية، وجعلها بديلاً للبنى الحقيقية: بنى التاريخ الذى نحبه رغم أننا لم نعشه (من يستطيع أن يؤكد أننا لم نعشه!).

ونعرف أن صانعى تلك البنى الذهنية المجردة (مهما كانت كانت محكمة البناء لم يكن بإمكانهم (ولأكن في افتراضى هذا على خطأ) أن يتمتعوا بأمكنة التاريخ الحقيقية، ولا أن يعرفوا قدر أهلها. ولذا، ربما، هم يبدعون فيما لا ينفع الإبداع فيه، لأنه بلا أمكنة تحتويه. فالتاريخ مكان.

•••

أحب الانتظار مساء على قارعة الطريق. أنا لا أنتظر أحداً قرب «الأكروبول». أنتظر أفول الضوء وظلاله الدامسة التي سترفع الصخرة المقدسة إلى السماء.

مساء، تبدو المسافات، هنا، شاسعة ومخيفة، ومنذ أن تمشيها تطوى الأرض تحت قدميك، تمشيها وأنت تتذكر أباك المشاء، الذي كان يسوق الجمال من «ديار بكر» إلى «نصيبين»، ومنها إلى سهول «الذُرو»، حيث شجيرات الحماد القليلة العلو

تتكاتف، وكأنها تريد أن تحمى بعضها من لهب الشمس: سرغل. وحرمل. وحُمّيض. وشيح. وقيصوم. ونباتات قصيرة، أخرى، لم تعد تذكر أسماءها، وهو ما يثير العَبْرة فيك.

جمال مَنْ تلك التي كان أبوك يسوقها؟ ومن أي فج أخذها وراح؟ أبوك الذي كان يحملك على كتفيه ليلاً بعد ليل. يذرع بك الأرض صامتاً، وأنت فوقه تهز عودك الصغير، ملاحقاً به النجوم. تبحث بينها عن نجمة الصبح، لتحطوا الرحال أخيراً، لتمس قدمك الأرض. فتركض فتبول.

ماذا بقى لك من ذلك التاريخ غير أن تذكره من بعيد. وفجأة، عند أقدام الصخرة المقدسة، يبزغ القمر كما كان، وأصير أبكي. أبكي كما كان يبكي أبي أواخر الليل، عندما ندق الأوتاد لنستريح قليلا قبل أن نبدأ الرحيل من جديد.

لا، لم أكن أتصوّر أن صخر «أثينا» سيثير أشجانى إلى هذا الحد. وبلا وجهة محددة، أصير أذرع الأرض ليلاً، وأنا أتمتم: «يا صخرةً قد هيجت أشجانى/ ذكرتنى أهلى وأظعانى». وأحس الدموع المنهمرة من عيني تغسل نفسي المحتقنة بها منذ سنين.

أنا الرجل القادم من بادية الشام.

# روما تحت المطر

تحت مطر «روما» الغزير.

كان يمشي تحت مظلته السوداء الصغيرة.

المظلة التي اشتراها من بائع آسيوى ماشيًا تحت المطر بلا مظلة.

كان الرعب يملأ نفسه وهو ينظر إلى «الكوليزيو»: رعب الجمال الباهر.

أي معنى يحمل التاريخ الغابر غير جمال تاريخه المرعب؟

كان يردد بصوت يكاد أن يُسمع: إن لم يقدر لنا أن نعاني هذا، فلنعرف، على الأقل، كيف نتمتع به الآن.

هنا كانوا يطلقون عليهم السباع والوحوش،

وهنا كانوا يقاتلون حتى الموت للدفاع عن.. للخلاص من عبودية خرقاء (نعيشها، بشكل أو بآخر، منذ عشرات القرون).

أي معنى لحياة الكائن بلا حرية؟ ولكن هل لموته مع الحرية معنى؟

•••

كان يمشي وحيدا بين جموع السواح المتدافعين كالعجول.

أي شيء يمكن أن يرى هؤلاء النفر المتزاحمون غير الحجر والطين؟ كان يمشي صامتا وحزينا. وفجأة، صار يُتمتم: يا إلهي لكم يخيفني هذا الجمال. وكأنه سمع من نفسه حِسّا، صار يضحك هازئًا من حاله، وهو يردد: ومن أي شيء يمكن أن يخاف الكائن إن لم يكن من الجمال، أيها الغبّي؟

•••

إلى أين كان يتجه ذلك الرجل الحزين، تحت مطر «روما» الغزير؟

الآن، تذكر.

منذ سنوات كانت تلتصق به. وكان يقودها نحو الموت. نحو حرية مزعومة ينظّر لها باستمرار، دون أن يعرف عنها شيئًا.

أكاد أقول دون أن يغرف منها شيئًا. ولكن هل لحرية الكائن من معنى خارج رغبته فيها؟

هنا، تمامًا، كان يريدها أن تقعد . وأن يقعد هو هنا، بالضبط.

مقابل «الكوليزيو» جلسا منذ سنوات. شربا شيئًا ساخنًا، وشيئًا باردًا، ومشيا.

لا، لم يعد يذكر ذلك اليوم. حجر الكوليزيو وخرائبه هي التى ذكرته به. ولِمَ لا؟ فأحسن الذكريات هى التى نستعيدها في أماكن حدوثها الأولى.

المكان خُلق للذكرى، لا، للإقامة فيه.

ماذا بقي له الآن غير أن يمشى؟ غير أن يمشي مستمتعًا بكل شئ: بالحركة وبالسكون. بهما مجتمعين، ومتفرقين.

الآن، صار يعرف ، بعد أن مشى منذ الصباح الباكر، تحت مطر «روما» الغزير، أنه سينام، سينام حزينًا وبلا عناد، مثل طفل فقد أمه لأول مرة.

•••

في «فينو» (خمر) بار السكارى الصغير، مقابل «ستازيونى ترّمينالى» جلست.

بار لم يعد فى العالم بار مثله (بار ـ حصرة). أعادنى هذا، سريعًا، إلى ذلك القديم: بار «دمشق» المسيج بالضحك والارتعاشات.

فتشتُ عن مكان أجلس فيه. أين يجلس المتطفل، عادة؟ قرب الباب.

فكرتُ، سريعًا، وأخذت قرارى بحزم: في الفُرجة بين الرجلين، علىّ أن أدحس نفسى.

الرجل القصير المكتنز، ذو الأنف الوارم، يحكى. لا يتوقف عن الحكى. ولم يتوقف حتى عندما دافعتُ عن نفسى، لألقى مُكينا، بالكاد يكفى لنصفى، أنزوى، بحذر، فيه.

من خلل حكيه، يحكى الآخران المجالسان له، يحاولان أن يحكيا، بالأحرى. يحكيان وهما يستمعان إليه (فى الحقيقة) بمتعة كبرى.

أنفه ذو الحُبيبات المكدّسة على الأرنبة والجانبين يملؤه بالغرور. لكأنه يؤكد للعالم أنه الشارب الوحيد لخمر الرجل القصير الماثل، بطاعة، أمامه: رجل الخنزير المصطلى على النار.

•••

لم يكف أحد منهم عن الكلام حينما جلست حتى «رجل الخنزير المشوى»، نفسه، تقدم منى (أريد أن أقول مَدّ عنقه، فقط) وهو يحكى. وبإيطالية حادة قال: «بريغو»؟ و«بإيطالية الإشارة» قلت: أحب أن آكل لحمًا مشويًا وخبزًا ساخنًا وأشرب شيئًا (رافعا قدحًا فى الفضاء، وعيناي تتطلعان بتواطؤ إلى اللحم والخبز ومشتقاتهما).

وفهم الرجل القصير (الماثل أمام الآخر بطاعة وحب) كل ما قلت، وكأنني ولدت «روميا». وبلطف شديد، قدم لي ما طلبت.

على ورقة بيضاء، مدها سريعًا أمامى وضع اللحم والخبز الساخن وبعض المقبلات «اليدوية»، وملأ كأسي الفارغ بسائل أبيض برّاق يسيل من دن خشبى يعلوه الرَثَثُ والغبار.

وأكلتُ.

أكلت بشهية لم أعرف لها مثيلاً.

لا صحون. ولا شوكات. ولا سكاكين.

ورقة بيضاء. وأطعمة لذيذة.

وصحبة لم أكن أحلم بها.

رأى الرجل ذو الأنف نفسى، فصار يحكى.. أكثر. وبعد أن كنت استرق إليه السمع، صرت أستمع علنا. وفورا، لاحظ اهتمامى (غير المتوقع) فقام من مقعده. وصار يمشي (ولكن في أى فضاء يمكنه أن يتحرك إن لم يكن في مكانه الخاص؟)

فى الحقيقة صار يمشى. يمشى أميالاً ومساحات. ومن تحت أجفانه التى لم تعد تتسع لاكتناز إضافى صار ينظرنى. ومن ثم صار ينظر إلى حصرا. ورآني أبتسم مسرورًا فصار يضحك وهو يحكى. ومن بعد صار يتفجر ضحكاً.

وكأنه رأى الإعجاب الممزوج بالدهشة فى وجهى، صار يستشيرنى. وصرت أهز رأسى بالإيجاب مؤكدًا أقواله (وبأي لغة، غير هذه، يمكن لي أن أؤكدها؟) ولما اطمأن إلى موافقتي العفوية معه، صار يدور فى مكانه، حاملاً كأسه باليمين، وشارحًا ما يقول باليسرى، متحركا بأبهة، وهو يبتعد، عامدًا، بنظره عنهم.

كان يشرح أحوال الكون كما حسبت. (يكاد) يشرحها شعرا. وأكاد أفهم كل شئ برغم أنني لم أكن أفهم شيئًا محددًا بالذات.

شيئًا فشيئًا أهمل صاحبيه اللذين صارا يتكلمان بصوت عال ليرداه إليهما، ولكن دون جدوى. لقد عثر، هو الآخر، على مستمع جديد لم يكن يحلم به. مستمع خلّصه من عبء العادة: عادة التحدث إلى مَنْ يجعلك تشعر، وأنت تتحدث إليه، كأنك تتحدث وحيدا (ومع نفسه)، مع أنه يشاركك الحديث باستمرار فصمت الآخران. صمتا وهما يحتسيان خمرهما الذي غدا، الآن، أصفر.

•••

في ساحة «باربيرينى» الرائعة، وسط ضوضاء روما الغامرة، أقف وأتساءل: كيف يصنع الكائن معياره الوحيد (حبه الذي لا يفنى)؟ ولماذا يظل يخاطبه بخطاب لا يُسمع، ويقول له، وحده، ما لا يُقال؟

وأجدنى أهزأ من نفسى، علنا، مرددًا بصوت أدهش الذين حولى: ولمَ لا؟ أي شئ هو الحب، إذن، إن لم يكن روح العزلة القصوى وقد تجسدت في كائن؟

•••

في«بيازا دى مانيانيلفى»، حيث معامل «فالنتينو» الشهيرة للألبسة، أجلس وحيدا، المطر الذي لا يكف عن الانهمار طرد

السواح من الساحة. جموع اليابانيين الكثيفة، وحدها، ظلت تسير تحت مظلات لا تحصى. ماذا ترى تلك العيون الملتوية وهي تحدق فى فضاء «روما» الساحر؟

كنت أرى البهجة البليلة تلون وجوه اليابانيات الصفر الشاحبة، وتفرج شفاههن الملوّثة بالأحمر الغامق: لون الشهوة التى لا تُروى.

كن يمشين بمتعة ملتبسة تحت المطر الذى جعل الثياب تتحنى بنعومة، ملتصقة أكثر ما يمكن بالأجساد.

تحت مظلة المقهى الكبيرة أجلس والمطر يداعب قدميّ. النادلة السمراء اللطيفة تبتسم لى من مكمنها، دون أن تقترب مني (لكأنها رأت) الشغف الغامر عبر الماء في عيني).

«كابوّجينو، بريفو» أقول. نصف ضاحك. وتختفي، مُلملِمة أغطافها اللدنة، لتظهر سريعًا، حاملة ما طلبت.

وكأن المطر جعلها تسيل هى الأخرى، رقة وضعت بين يدى الذى بين يديها وهى تبتسم بلطف كبير. «غراجيًا»، أقول شاحذًا نظرة أخيرة منها. وتختفى من جديد، وهى تردد، من بعيد: «غراجيا»، تاركة عطرها الذي لا ينسى.

•••

مساء أمشي.

«فيا كافور» اقطعه حتى النهاية. من خلل «فيا دي سر بنتى» أرى واجهة «الكوليزيو» العظمى تتنفس بين شدقيه. الغروب يلوّنها بلون فضى عتيق. لون لا يثير فى النفس إلا التشتت والكآبة.

أتابع سيرى في «فَيا كافور» حتى «فورو رومانو»، حيث الأعمدة الهائلة ممددة على القاع مثل فرسان قتلوا في مكمن لئيم. حيطانه مهدمة (لكنها شامخة). أدراجه مثلومة ومنقوصة وأحجاره التاريخية مرمية بإهمال في الحضيض.

الغروب الهادئ (ذلك المساء) يلقى على حُمرتها العتيقة رداء فضيًا باهتا، ملوّنا سيماءها بلون نحاسى متفطرس، يزيدها هيبة وجلالا.

في زوايا جدرانه المحطمة تفغر غيران التاريخ أفواهها، وكأنها تتهيأ لإطلاق الوحوش التي ستفترس الفراغ للتوّ. لكن العصفور الصغير الجائع الذى يبحث، عبثا، بين فُريجاتها عن حبة يأكلها، يؤكد أن كل شئ صار غبارا.

هنا تدرك أن التاريخ ليس له إلا احتمالان: كما حدث وما لم يحدث. وأن أي نقد له خارج الأيديولوجيا سيكون بلا معنى،

وهو معها لا معنى له أيضًا. ما حدث، هما في الحقيقة احتمال واحد لا احتمالان. وهنا تكمن قوة التاريخ وسطوته. إنه يحدث وعلى الآخرين أن يتكلموا على هواهم.

•••

أخيرًا يتوقف المطر ويطلع القمر على خرائب «روما». وأصير أرى فى السماء بعض النجوم. المبلولة وهى تنشف نفسها من رطوبة الغيم.

إلى أين اتجه الآن؟ كل ما يحيط بي يشدني بقوة إليه. صرت أتمنى أن أكون شجرة. شجرة بعيون لا تحصى. عيون بعدد أوراقها ولها اتجاهات أغصانها، حتى أرى كل شئ معا وفي نفس الوقت، دون أن أتحرك من مكاني: لكن القمر السائر يدفع بي من جديد إلى السير. وأصير، تحت ضوئه الماشى أعد أعمدة الكولويزيو، وفوهاته التى لا تُبعد، أعدها، دائرًا حولها ، حتى ينتهى الليل.

•••

في «فيا مادونا دى مونتي» توقفت أحتمي من المطر بالسحاب. مظلتى السوداء الصغيرة لم تعد تنفع شيئًا تحت هطيل المطر الغامر.

مطر «روما» يظل لطيفًا وقريبا من القلب مهما اشتد. بِمَ ذكرني هذا المطر المتبختر ذو الحبيبات البيض المكعبة واللمعان الخافت الغريب؟

هذا الصباح، أيضًا ، كنت أتجه منحدرًا نحو قاع المدينة. نحو «فورو رومانو»، حيث سأتوقف مرة أخرى (وهذه المرة فى وضح النهار) أمام الأعمدة التاريخية الملقاة بإهمال على الأرض. كنت أقصد النصب. نصب «فيتوريو إيمانويل دوي» الذي يتوسط «بيازا دى فينيسا».

على أدراجه البيض الهائلة (حيث العناية تتجلى فى أقصاها)، وبرغم المطر، يرتص الشباب بعضهم لصق بعض، مثل ذباب هائل مصاب بداء السكون.

بم يفكر هؤلاء الصبية الجاثمون تحت صبيب المطر والريح؟ وأى سحر يمكن أن يربطهم في المكان غير تاريخ له قوة المطر ومتعته؟

•••

في «بيازا دى كيرينالى» الآسرة، تشرق الشمس بعد أن ينجلى الغيم من بعيد، من علوّ الساحة الصفراء العظمى أرى قبة «الفاتيكان «الجليلة تراقب المدينة بصمت.

بين القبة والساحة تتراصف الأبنية القديمة، ذات اللون الأصفر الذهبى الذى بَلَّله المطر للتوّ. وفي الشوارع المتضايقة باستمرار يتزاحم الناس بلطف كبير. يتزاحمون وعيونهم مملوءة ببهجة غريبة وكأنهم خرجوا لتوهم من كرنفال بديع.

اغتنم فرصة توقف المطر، وصعود الضوء لأتنفس قليلاً، ناظرا، هذه المرة، بلا مظلة فى المحيط.

لا، لا يكفي أن تكون مدينة ما متحفا كبيرًا لتكون جميلة ومغرية إلى هذا الحد. لكن «لروما» أسبابًا أخرى تجعلها تبلغ هذه الدرجة من الكمال فى الروعة.

إنها مثل بناتها السُمر، ذوات البشرة الصفراء الجاذبة، بشعرهن الأسود الغزير، وهن يتحركن بحيوية وريبة، وكأن أشباحًا لا تُرى تتربص بهن في كل مكان.

•••

في «بيازا ديلاترينيتا دي مونت» ترى الكائن الحجري، وروحه تحوم حولك فى الفراغ. المسلة الهيروغليفية التى تنتصب في الساحة مثل عضو سعيد، تذكرك بالتواريخ الممتزجة بالتوابل والأحابيل. وتؤكد لك أنك مثلها وحيد وبلا أساطيل. وأن عليك أن تبقى كذلك إذا ما أردت أن تظل ترى العالم بعيون متجددة وسعيدة.

لقــد تأكـد لـي، هذه المرة أيضًا، أن الموت الحـقـيـقـى هو الانكفاء على الذات (واقعًا وتاريخًا، فردًا وجماعة) وأن الحياة الكبيرة هي التبّصر المتفتح المؤدى إلى الإدراك.

•••

بين حدائق «فيلا دي مديتشي» و«فيلا بورغيز» أمشي ثَمِلا بالتاريخ، وأنا أغنى الألحان التى لا أتقنها إلا في رأسي.

عندمـا أكـون وحـيـدًا أصـفـو. قـذارتى الداخليـة وعكري يطفوان. يظهران على السطح. ينغسلان بالمطر مثلي (ومعي). أحس أنى فى محيط لا يعرفنى حتى ولو رآنى (وهو ما يحـرر مشـاعـري وأوهامـى) مـحـيط أتمتع به دون أن أكـون مـضطرا للاندماج فيه (بم يحلم الكائن المعزول إن لم يكن بهذا؟).

بين تلك الحـدائق التـاريخية كنت سعيدًا، فعلا. وبالضبط، سيعد لأننى وحيد. شىء واحد كان ينقصني (في الحقيقة): امرأة. امـرأة أقودها بين تلك الأشجار العالية ذات الخضرة البنفسجية. أعرض عليها مفاتن الحياة في خلوة خضراء مبلولة. انتهى، ربما، من شغفى الذي لوعنى طيلة هذه الأيام.

ولكن لمَ تراني أبحث عن «امــرأة» بمثل هـذا التــشــبث والإصرار؟ وأى امرأة يمكن أن تكون أمرأة.

لا، ليست العين هى الدليل بل القلب. والقلب غالبا ما يخطئ الاختيار. إنه التمنيي الذي لا ينتهي، إذن. وإلا لِمَ تراني أبحث عنها، بمثل هذا الشغف، فى مساء «روما» الماطر، هذا؟ أبحث عنها؟ لا، مطر «روما» الغزير الدافئ هو الذي ملأني بالحنين: الحنين إلى أمي.

•••

في «بيازا دى تريفى» وأمام نبعها الشهير «فونتانا دى تريفى» أكتب كلمتى الأخيرة. حول النبع الأبيض الصافى الذى تنهمر مياهه من أفواه الأحصنة والأفاعى يتحلق اليابانيون، وغيرهم. على المرمر الأبيض اللامع يلقون أجسادهم، بإهمال، وهم ينظرون الماء بأعين شهية: لكأنهم لم يروا ماء من قبل.

تمثال الرجل الجميل، شبه العارى، يحيط به تمثالان لامرأين «محتشمتين»، بملابسهما الكاملة. هو يحمل سيفا وينظر في الفراغ بعيدا، وكأنه يلاحق الغيم الذى بدأ الفرار نحوَ الأعالى. وإحداهن (اليمنى) تحمل عنقودًا من العنب، تمده أمامها وعيونها تنظر إلى الرجل ذي السيف: تريد أن تطعمه ولا تقدر. والأخرى (اليسرى) تحمل عصا طويلة، تمسك بها بتصميم وهي تنظر إلى الأسفل وإلى الرجل، معا:

تأمره بالمجئ إليها وهو لا يجئ، مع أنه على أهبة الحركة والسير. ولذا تبدو وكأنها تريد أن تطرفه بعصاها إن لم يجيء فى الحال، أو إن ذاق عنب الأخرى.

عند أقدام التماثيل الثلاث ينفخ رُعاة الأحصنة فى الأبواق. ينفخون فيها وهم ينظرون بشزر إلى الناس، وكأنهم يعيبون عليهم سكونهم البائس أما تدفق الماء الذى لا يكف عن الحركة، ونزق الحجر الذي يكاد أن يغادر مراتعه.

•••

غدا أغادرها «روما». وعليها أن تغادرنى، هى الأخرى.

في «فينو»، بار السكارى «الرتيزانال»، قرب «المحطة المركزية»، الملاصقة مباشرة لساحة «الجمهورية.. (بيازا دي ريبيبليكا)، اتعشى من جديد (أحاول أن أتعشى، بالأحرى) طلبت، كالعادة، خبزًا ولحمًا مشويًا على الخشب ، وكأسا. وكالعادة، جاءنى ما طلبت (بلغة الإشارة) على ورق أبيض، بلا صحون أو شوك أو سكاكين. وعلى الطاولة العتيقة الوحيدة، أياها، حشرتُ نفسى بين نفسين. حشرتها حتى حرت كيف أتنفس.

كانوا يتفرسون في وجهى وكأنهم يتساءلون: من أين جاءنا

هذا الغريب. وكنت أتفرس فى وجوههم (وأكاد أقول بعدائية واضحة) باحثا عنه عن صديق الليلة الأولى، صديقى ذى الأنف الوارم والأجفان المثقلة بالنعاس، والصوت الممتلئ جلجلة وحياة. صديق الصدفة التي لا تتكرر، أين هو الآن؟

حاولت أن آكل، وأنا أعرف أنني لن آكل شيئًا. كانوا يتكلمون همسًا، وكأنهم يخبئون عني سرا جليلا. من جديد، حاولت أن أرى فى وجوههم شيئًا، ولم أرَ غير البلادة والامتعاض. امتعاض وبلادة يقاربان الموت.

فجأة، حفزت وأنا أقول بصوت عال يسمعه الجميع: صارت الجلسة مملة، وعلى أن أقوم الآن.

# رمال عُمان

## (١)

فى مطار «السيب» الدولي حطّت بنا الطائرة، آخر الليل.

زخارف وفضاءات. التماعات نور الفجر الذي بدأ يتجلّى، بعيدًا، حيث أول أرض عربية تشرق عليها الشمس. حركة صمّاء بلا أنين. وهدوء قاحل مثل دبيب البشر الذين يتحركون طُيوفًا.

من أنا، وأين أكون الآن؟

## (٢)

في «مسقط» (فى مساقط، بالأحرى) تحتضنني الطبيعة، كلها، فى المساء. تغيب الشمس ولا يغيب نورها الذى تبقى ظلاله الآسرة حولي. ظلال عالقة بقمم الجبال السود مثل رايات جيوش خرافية ولت الأدبار. وحده، ماء المحيط يظل مليئًا بالبهجة والضوء. ماء خرجت منه، قبل قليل، وكأنني ولدت للتوّ.

في قبـة الماء، وقفت أتساءل. أتسـاءل؟ لا، وقفت ناظرًا إلى الجبال. جبال شُهُب مطلية بالقـار. جبال تحيط بالطبيعة كما تحيط الحديقة بأوتادها. بينهـا وبين العصـافير كنت أطير. أي صـدع يفتن الكائن وهو ينظر اللا مـرئـي؟ أكـان علـيَّ، إذن، أن أُخطئ مرة أخرى، لأتأكد من أنني لم أُخطئ، أبدًا، عندما كنت أتوقع أنني سأُخطئ من جديد!

مـتـوترًا أُقابل العـالم هذا النهـار. مـتـوتـرًا، ومـتطـرفًا في مشاعري، أمشي «هادئًا» نحو الميحط. أمشي محاطًا بالجبال الجُرد الواقفة بلا مبالاة فوق الماء. أخيـرًا، أحظى بالظل، وفى مواجهتها أجلس. قمة، قمة، أتملاّهـا: ثمة سـرّ لايُدرك تخفيه هذه الجبال! ولكن، أي معنى لسـر لا تدركـه الذاكرة، ولا تريد العين أن تخطئه فى الحال!

مشاعـر كثيرة تناهبتني وأنا أتولاها. مشاعـر هَيّب ورُعابات. لا، لا يمكن لى، بعـد الآن، أن أتـراجع لأنني صـرت أخـاف. أخاف من الوقوع. من لذة الوقوع بين مخالب هذه الجبال. هذه الجبـال الحـادة كـالسكاكين، وحـزوزهـا المستقيمـة المنحدة من السمـاء. لكأنهـا شقت المحيط، قبل قليل، ناشقـة بخُشومهـا العظمى هواء الأعـالى. لـكأن تفـجـر الكون الأول قد تم ها هنا! ومن يمكن له أن يؤكد العكس؟

## (٣)

ظمأ الصحارى القديم يستبد بي منذ أن أراها، ولا أجد أمامي سوى المحيط. ماء وملح. صخور بلا أعشاب. أشجار سِدر مليئة بالشوك. وقنافذ تستظل بالتربة من الشمس. حتى الجبال تبدو ظامئة، هي الأخرى. من يرويها؟

أطلب من «درويش» مـــاء. ويصب لي كـــأسًا من الورق والرمـــان. «. «درويش» الأســـمـــر، الذى يكاد أن يكون أســـود ،يضحك. يضحك بصمت يشبه صمت الجبال الواقفة، بتبجح، فوقنا. ولكن ما هم الصوت طالما الرؤيا سالكة؟ وأى معنى لضجيج في سدرة من الخفاء؟

غدًا سنذهب إلى الصحراء. إلى حلمي الذي رافقني منذ ولادتي فى «بادية الشام». عن صحراء «الجزيرة» استعيض بصحراء عُمان! ولم لا؟ ما هم المواقع إذا كانت الروح هي التي تسير؟ وكيف لا نتعزى عن أمكنة لم تعد تسمح لنا بالوصول إليها؟

في الطريق إلى الصحـــراء نمر «بالجـفنين». ومن بعـد، «الخرس». ومنذ أن نتجاوز الشُجيرات القليلة المزروعة بأناقة على الطريق، نسقط في الصمت. صمت التلال الصُر المليئة بالنور.

وقبل أن نبتعد عن «مسقط» كثيرًا، نرى: «فنجا» ١٠ كم، يمينًا! ولكن أي معنى لمسافة بلا ربُوع؟ «مسافة من الفضاء» في فضاء من مسافات بلا حدود. فيه تمشي، وأنت، في الحقيقة، مقيم، ذلك الفضاء المصنوع من الحُمرة والضوء. ضوء الشمس الآسر مثل رصاص مُذاب.

بعد الجبال «الصُغرى» المحيطة، مباشرة، «بمسقط» نتوقف فى المحطة. منها تتفرّع الطرق والإبهامات: «صور» و«صلالة» و«نزوى» والجبال. الجبال التي تراقب بعيونها الحجرية الطرقات. و«إبراء» و«سمائل» و«لزغ». وأخيرًا، سرور «حيث ولد أحد الناس. واحة واطئة من نخيل. من نخيل بلا أعذاق، ذو خُضرة مُرة والتواءات.

(٤)

طائرًا في الضوء، شيء واحد كان يُحيرني: أين هي العصافير؟ أين هي الطيور الكاسرة المحلقة تحت الشمس؟ أين هو صوت الحياة، وما مداه؟ ولماذا لا تتكلّم هذه الجبال العظمى الراسية فوق البحر، أقصد فوق البر؟ ولم تظل سلاسلها تحيط بنا، صامتة، بلا انقطاع؟ أية مفارقة لا تدرك تفصل بين الكائن وبين الكون!

أخيرًا، أرض «منبسطة» على الطريق! أقصد مجموعة من التلال المحاطة بجبال على مد البصر. تلال أشجارها القزمة تلطأ محتمية من وهج الشمس «الشتوية» بالتراب. وأقرأ: من اليمين «وادى عندام»، ومن اليسار «وادى محرم» ونحن نتابع السير باتجاه «صور» (أي صور هي الأولى، إذن: هنا، أم هناك؟) ولكن ما جدوى التكهن فى غياهب قاع لا تهمها التخرّصات؟

كيف نفهم الجهات فى فضاء بلا سمات؟ فضاء منسجم من الضوء والهضاب. وقبل أن تموت الفكرة في ذهنى تنبثق الإشارة، من جديد: «وادى الطائيين» يسارًا. واد يفصل بين جبيلين لم ينفصلا، بعد! لماذا أتعذب؟ يكفي أن أتملّى الجبال الهاجمة كالوحوش علينا. أن أتملاها ذائبًا في بهرة الضوء، حالمًا بالصحراء.

في العصر مررنا «بسفالة إبرا». «الفلاجي»، بعدها. صرنا على أبواب الصحراء في عمان. أخيرًا، تفك الجبال طوقها العظيم عنا، وتبدأ بالتراجع نحو المحيط، كاشفة أوائل أقدام الرمل، عند «وادي الدماء».

كثبان تغريك بالوصول إليها، ولا تصل! لكأنها تسير مثلما أنت تسير. الشجر الصغير الخاتل بين ذراتها لا يمنعها من الحركة، ولا يسعفك فى الوصول إلى حيث تريد. أية خدعة تهيئها لك الكثبان؟ وأي مكر تتمتع الطبيعة به دون أن تبذل في سبيله جهدًا؟

وحدها، الشمس تنتظرك ساكنة حتى تجيئ. شمس الصحراء التي ستلتهم رطوبتك وثناياك. وستملؤك بوجد لا يُفسر. تحت وطأة الشمس العنيفة، هذه، تقف ملتاعة أشجار الأكاسيا، ذات الأغصان اللاطئة، والجذوع اللابدة في الرمال. تقف منصاعة مثلما تقف أنت. وأنت بلا غصون.

(٥)

«الحوية»، واحة النخيل المتبتل بين كثبان الرمال الوحشية، من يحتويها؟ من يحتويها سوى الصهد والشمس. سوى هذا الفضاء المترامي من ضوء بلا حدود.

ليس بالصدفة، إذن، أن تولد، هنا، فى هذه الصحراء: فكرة المطلق، ذات يوم. هذا ما ستدركه سريعًا ذلك العصر، الذي كان بلا خسر.

فوق «حبل الرمال» (بالحاء) الذهبي الممتد جنوبًا وشمالاً، في أعلى قمم الكثبان الصُفر المربوطة به، تقف مذهولاً، ذلك المساء. محيط من الرمل المتموج كالبحر. كائنات من الشجر المتآلف مع الضوء. خطوط وتعاريج. وسماء زرقاء لا تنتظر من أحد شيئًا سوى النظر الحصيف.

صمت، ونور. سكون، ووحدة بلا قرار.

من يقدر إنحناء الكون، هذا المساء؟

فوق الكثيب الأعلى نجلس منتظرين غروب الشمس. لكن الشمس، هنا، لا تغيب. وحدها، الظلال العظمى تغمر الكون بهدوء. ظلال أراها ترتسم على الهضاب المقابلة لي، بعيدًا، قبل أن تذوب. «ظلال»؟ لا ! إنها ذرارى الشمس المنبثقة من حبوب الرمل بعد أن اختزنتها طيلة النهار.

في صمت الكون العميق، هذا، ضحك «عبدالله» ضحكته «الشهيرة» وهو يحفن الرمل ويذريه. وينبطح «طالب» متمرغًا على جنباته فوق الرمال. أما «سيف». فقد ذهب يمشي حافيًا في ذلك المساء الذى يجئ متمهلاً، مثل غيوم لا تسوقها الرياح. يمشى على الرمل بأمان وكأنه هو الذي بسطه فوق الأرض بيديه.

وحدي، أظل صامتًا وطليعًا. ولكن، فيم كنت أنظر، فى تلك الساعة المنيرة، إن لم يكن في الرمل؟ في الرمل الذى صار لونه، فجأة، من لون قلبى: أصفر، رماديًا، يميل إلى السواد. أيكفي أن يبتعد الكائن عن الطبيعة حتى يموت؟ وهو، بالتأكيد، ما حدث لى. بضع أمتار ويبتلعنى الرمل، أنا الآخر. يبتلعني ويخفينى. أصير شجرة صغيرة تتحرك وهي ساكنة في الفضاء. شجرة تدرك أنها لم تكن تدرك شيئًا.

هنا ستعرف أن الحقيقة، وحدها، لا تغيى شيئًا. لأنك ببساطة تعيش فيها: حقيقة الأشياء المرمية بلا سُجف أمامك. وهى، لذلك، ربما، ليست مصدرًا للإدراك. إننا، هنا، بحاجة إلى مخيلة بعيدة المدى، وإلى روح خالية من الاضطراب. روح تعيد اتحادنا مع العالم بعد أن فرقونا عنوة عنه.

روح تتمتع برؤية لا تفوقها مثل هذه «آالكبائر». انظر!

أبراج المراقبة المنتشرة فوق الهضاب المتناظرة تراقب العدم! لكأن جيوشًا سرية ستغزو فضاءها الخالى، وعلى الفور. ماذا تراقب تلك الأبراج الغريبة سوى الخلاء؟ وأى عين تسكنها سوى عين الدهشة؟ دهشة الكائن المتواري في ذاته من شدة الضوء.

أبراج عبثية في فضاء مغمور بالصمت والسكون! أتراها تراقب الريح الذي ولى؟ أم تراها تراقب الطيور التي غدت من سطوة الشمس زواحف؟ لكأن الكائنات، هنا، لم تخلق إلاّ لمثل هذه الطبيعة: لطبيعة سلمت أمرها للضوء والخلود. لكن قمم الجبال المسننة، وهي تتغمر بضباب الضوء الساخن، تشهد أن في الأمر لغزًا آخر. لغز أحاول، منذ أن وصلت، إدراكه، ولا أصل. أية رابطة تجمع بين الكائن وطبيعته سوى الروح؟ سوى روح تخلصت من الشوائب.

أشجار الصحراء القزمة، اللاصقة بالأرض، هي التي أوحت لي بذلك. وهى التى أقنعتنى بأن للطبيعة مسارها الخاص، وينابيع متعتها، أيضًا. لماذا لا أتريث، قليلاً، قبل أن أحكم على الأشياء؟ لماذا لا أريد أن أفهم أن ما أراه ليس أكثر من جملة عارضة فى كتاب الطبيعة الكبير؟ فلا صمت، إذن، ولا نظر. انظر الاختلاف، علني أتمكن من التكلم مع هذه الصحارى والجبال. علني أتعلم لغتها الأثيرة لديها: الصمت. لغة الرسوخ الأبدى لطبيعة تتساوى الكائنات عندها مع العصافير.

(٦)

عابرًا فيها، لا يمكنك إلا أن تتساءل، أن تتساءل بسذاجة وغباء: من أين تنبع هذه الجبال؟ وللجبال أسبابها وأسرارها.

وهي لا تريد أن تكشف لك شيئًا منهما. ابحث عنهما فى ضمور الشجر. وفى الضوء المنبعث من الحجر. في صفائح الكثبان التى تنتظر الريح. أبحث. لا بد لك أن تعثر على «شيء» فى هذا الخلاء المنفتح على الأزل.

الرمل يتحجر، فجأة (انظر)! فيصبح صخورًا بيضًا بلا نبات. صخور تركب بعضها كالأحصنة الجامحة في الريح. فوقها تقبع، بأبهة، أحجار مشعة وكأن أحدًا حقنها بالضوء. بين تلك السلاسل المتجاورة من الرمل الذى غدا صخرًا، لا شيء يتحرك، لا شيء يهب، ولا شئ يحكى. حتى الأشجار القصيرة الجذوع تبدو ساكنة وكأنها حبست في فضاء مفرغ من الحياة. الشمس، نفسها، تقف بعناد فى مكانها. تقف بصلافة وعينها على الأرض. لكأنها لا تنتظر من الكون سوى الخضوع.

هنا تحس نفسك فى فضاء مسحور، حتى أن «مسقط» تبدو مدينة «غير واقعية»! وبرغم «بساطة الطبيعة» تبدو العلاقات بين الناس شديدة التعقيد. أيكون ذلك بسبب المشهد ذي البعد الواحد؟ أم ان لغياب الطيور أثرآ فى ذلك؟ أما المحيط الذى يبدو هادئًا فهو، في الحقيقة، لا يوحي إلا بعدم الاستقرار.

عدم الاستقرار العميق الذي يبلع بهدوئه الشديد ضوء الشمس المنهمر طيلة النهار.

وكيف لا أُلاحظ في «مسقط المتعددة»، عندما أعود، ذلك الاختلاف: الاختلاف الصاعق، بين ما يعتمل في جوف الطبيعة من أعاصير، وبين ما يظهر من رُكود على وجوه الناس. لكأن كائنات «مسقط» كائنات من كوكب آخر!

كنت أحب أن أحيط «بمسافة»، سريعًا. لكن التبعثر الشديد (لمدينة هي، في الواقع، مجموعة من المدن) لا يسمح بمقاربتها إلا من زاوية النظر السريع. لماذا لا أُداري وجدي، إذن، قبل أن تشتعل فتائل الروح فى الغروب؟

هنا للوجوه كآبة خاصة. وللأجساد حركة سائلة مثل الماء المنسكب بعد الغسيل. لكأن وجوه البشر لم تخلق لأجسادها! لماذا لا أتحرى الأمر من منظور آخر، إذن؟ طبيعة مثل هذه لابد أن تحقن كائناتها بطبائع خاصة بها، حتى وان ظلت خافية عن العيون. أترى؟

## (٧)

في «السافارى»، باري المفضل، أجلس مساء مع الأصدقاء. أصدقاء الصدفة التى لا تتكرر. أجلس متحفزًا، باحثًا في

الحضور عمّا يمكن له أن ينير القلب. ولكن أية أشعة ملهمة يمكن لها أن تبقى في فضاء عُمان بعد أن تموت الشمس؟

أتناول كأسى بحزن. بحزن آسر، أتناوله، وأنا لم أعد أنظر أحدًا. أدعهم يثرثرون، وأصمت. «الوهيبى والربيعي» و«المركيز دي ساد» الذى لم يبق له من «السادية» إلا أسمها الذي اهترأ. و«مال» الشاعر السري الذى قرأ لى قصائده «البريئة» على ضفاف المحيط. تحت ضوء قمر «مسقط» المتسلط على الليل، قرأها وهو ينظر إليه بفرح مثل طفل يرى أمه آتية من بعيد، مؤكدا لى برصانة: انه (القمر) يختلس نوره من الشمس! لكأنه يكشف عليَّ سر الكون الذي لم يكن خافيًا على أحد إلاّه.

لم أعكره وهو سعيد؟ سعيد لأن أحدًا آخر، سواه، سمع، أخيرًا، كلماته المكبوتة التى كانت ترهق نفسه. أحد ملئ بالدهشة والصمت (مثلى) تحت قمر «مختلس» ينير العالم بضوء غيره! لماذا أتكلم؟

لا، لم يكن للغة قلب، ولم تكن الكلمات تتسع للحنين. أى شيء كان يجمعنا، ذلك المساء، إذن، غير شغف آسر إلى براءة ولّت؟ ذلك المساء الدافق بالانفعالات بما كان يمكن لنا أن نملأه، سوى بأبهة العواطف المهترئة التى لا توصل إلى أي رحاب!

أخيرًا، أضع القلم متنفسًا بعمق. لكأني غريق ينشق هواء البحر بعد غطسة طويلة. أتنفس، مرة أخرى، وأنا أمسك به، من جديد: أنا فى مسقط؟ لا، لازلت فى الصحراء. فى صحراء التيه الأزلية. لازلت فى «الشرقية»، بعيدًا. بعد «الحوية» ببعيد. لازلت في البارحة مساء، حيث الرمال واجفة بانتظار الحد. رمال الكثبان التى ابتأست لغروب الشمس، شمس عُمان التي لم تفارقنى طيلة النهار.

بالأمس، عند الشجرة اللاطئة التى اقعيت قربها وحيدا، مثل كلب طردته الكلاب، كنت أبحث عن وجه أمي. أبحث عنه بين حبال الرمل الممتدة شرقا حتى الغياب.

كنت قد بدأت أدرك بشكل جلىّ أن عظمة الأم تكمن في غيابها الذى يوجب البحث عنها. وأن حضورها المستمر ليس أكثر من وسيلة للدمار. أكنت، حقا، أبحث عنه؟ عن ذلك الوجه الذى هجرته، ذات يوم، فى بادية الشام! أم كنت أبحث عنها، عن نفسي؟ نفسي التي خليتها هناك. كنت اكتشف، فى ذلك المساء الممتلئ بالرجيج، أننا لا نستطيع أن نفعل ما نريد إلاّ بأجسادنا. وكان ذلك يشعرنى بالعجز مرتين!

أحسستنى أريد أن أبكي، ذلك المساء، وأنا أُلاحق حبال الرمل المتقاطعة كالأفاعى الغافية تحت الشمس. لم تراني جئت إلى هنا آخر النهار؟ وأى غروب يمكن أن ينعش القلب، حتى ولو كان غروب الشمس فوق رمال عمان؟

لكأن الأمر لابد منه! لابد من الوصول إلى نقطة الرمل حتى ولو متأخرا. وأى معنى لعودة متسرعة وبلا ضغينة؟

لماذا لا أمشي، أنا الآخر، حافيّاً على الرمل، علّني أُلامس جسدها الذى غاب فى الظلام؟ بلى! فى ذلك الغروب المشع بنور الرمل كان كل شيء ممكنًا بما فيه حضورها المستحيل. وقد حضرت بالفعل! أترى؟

## (٨)

يدي على القلب، وفمي فى الاقحوان. إقحوان الرمل الأسود المتوّج بالنور! لأول مرة صرت أحس أن بإمكاني أن أقول شيئًا حيث لم يكن ثمة مايقال! هنا لست بحاجة لأن تواجه الطبيعة بعدائية وعنف. ولا أن تستسلم لها بتواطؤ، لأنها ستحتضنك مُنذ أن تجئ عنصرًا من عناصرها، وستضيفك، بلا ضغينة، إلى ذرارى رملها التى لا تحصى! هنا أنت فى حماية الضوء، مثلك، مثل أية شجرة صابرة في العراء.

سريعًا تتفتّت الهالات، وتأخذ الأمور حجمها الطبيعي ماعدا الرمل الذى محتفظًا بوقاره! إنغلاقه على نفسه، وتثنيه، يحميانه من تسطيح الرؤية ومن بلاهتها. يجعلانه أكثر غموضًا، وأشد وطأة. كلما تمعنت فيه ازددت بعدًا عنه. وكلما تمسكت به انفلت منك.

نفسي مليئة بالحكايات، وعقلي فارغ. حكايات من تلك التى تلح على بالكلام. ولكن لمن أحكيها؟ لمن يتوجب علىَّ أن.. لمن، إن لم يكن لأشواك الصحراء التى بزغت رغم الرمل الذى يخنق الأرض ببساطة اللامتناهى؟ ولكن، من يمكن له أن يسمع شيئًا في هذا السكون المنفتح على العدم؟ سكون الرمال التى ارتاحت، أخيرًا، من وطأة الشمس. وأي معنى لانتكاس الكائن فوق هذه الوهاد، حيث النور المنبثق من الأرض يشبه أمواج المحيط التى تخفيها الجبال! من رمال الصحراء أسقط، رأسًا، فى المحيط. فوقي تتأهب الجبال للصعود إلى السماء. بخار الجبال، عصرًا، يعيدنى إلى الشمس. إلى الشمس التي فقدت، فجأة، سلطتها على الكون. جبل، جبلان، ثلاثة، آلاف الجبال، وألوان العصر الرمادية الفارقة فى الضوء، وأمواج المحيط المتكسرة، مثل جيش يُدارى فلوله، و... أية زُلفى تقرّبني إلى السماء أكثر من هذا؟

## (٩)

عند غروب الشمس ندخل «حرالم». قرية الصيادين اللاطئة تحت الصخور. يشير إليها بأصبعه اللطيفة «بوس»: انظر!

وجوه عبّس، ومحروقة. أجساد نحيلة ملأى بروائح البحر والزنجبيل. دورها البيض الواطئة تمنح البحر المحيط حياة بلا حدود. دور صغّرى تعاكس «بضآلتها» المريعة عظمة الجبال. أي سر يجعل «الهشاشة» مصدرًا للاختيال؟ وكيف لا تضطرب الروح وهي تتأملها بخشوع؟

أتكون الجبال الحاضنة لها هي التي ملأت النفس بذلك الشعور الجليل، مساء؟ أم هو المحيط الذي يتربص بالكون لجًّا؟ المحيط الذى ينظر الفضاء بعينين هائلتين من الماء لا! هو، إذن، غروب الشمس ما أوحى لى بذلك؟ الغروب الذى بدأ يسحب، الآن، نوره الخاتل فى الماء. الماء الذى غدا، فجأة، كالكائن العابس بلا ريوع.

من «حرامل» الغاطسة فى القاع نصعد نحو «قلعة الجيلالى» التي كانت سجنًا سيء السمعة. كانت، وأصبحت متحفًا. يقابلها على الفور، «قلعة الميرانى»، يشرح لي «بوس».

يشرح بفمه اللين الذي يشبه فاكهة نضجت كثيرًا دون أن يهتم أحد بقطفها.

القلعتان تقبعان تحت «قلعة السعالى» العظمى، حيث بقاياها لازالت تركب أعلى قمة جبلية فوق المحيط. من «قلعة السعالى» ينحدر اللسان الجبلى حتى الساحل، مخترقًا بيوت «مسقط» القديمة، قبل أن تغسله المياه.

القلعتان تحاصران البحر من الجهتين، قبل أن تحيطا، إحاطة كاملة، «بالولجات». ثمة، قلب مسقط العتيقة، حيث «المأتم الحسينى» يختل لاجئًا بين دورها البيض المتداخلة، وكأنه يحتمى بها من الشمس.

تحت «قلعة الميراني «أقف مأخوذًا في المساء. أتملّى الجبل والماء. وفي الجهة المقابلة للقلعة البرتغالية المهيبة سأرى أسماء السفن التى مرت ها هنا، ذات يوم. سأراها محفورة في الحجر والريح. رذاذ الميحط يغسلها، بلا ندم ويداعبها الموج قبل أن يتطوح بعيدًا فى الفضاء.

أسماء ووشايات. قباطنة وحدائد . ضجيج وقرقعات. بخور ونساء. كائنات شتّى، أحسها تجهد نفسها لكى تصعد الجبل المواجه للقلعة دون أن تبلغ مآربها. أية وليمة كان التاريخ يهيئها

لهؤلاء؟ ولم تراني صرت أرى أحذيتهم تتساقط في الحضيض، أمامي! أحذية القراصنة العظام، أولئلك الذين لوثوا البحر بحريتهم وحرابهم.

الخليج الصغير الذي يقود ماء المحيط حتى «الولجات» يأخذنى إلى البعيد. إلى حيث يقبع التاريخ منذ آلاف السنين: تاريخ الماء الذى لا يفسر. هنا كان مرفأ مسقط القديم الذى أصبح قصورًا بيضًا بلا تواريخ. قصور تتلقى رذاذ الماء بلا اختلاج. أي «مسقط» هى هذه التجليات؟

وحده، شارع الماء، الفاصل بين الجبلين، يهديء روعي. يغرينى بأن أُماشيه حتى الضلال. يسحبنى إلى حيث أقانيم الحياة السرية للكائن. شارع بعرض النظر، ويصعب الولوج فيه. ضيِّق، ويتسع للعالم، كله! أى ماء سيتجلّى لي خلفه؟ وأي ضوء سينير الروح؟

من «باب المثاعيب» نخرج مساء، تاركين مرفأ مسقط القديم، متجهين إلى «مطرح»، حيث المرفأ الجديد. «مطروح»، حيث كانوا «يطرحون» الحرير والتوابل والجلود والأغاني والغواني و....

في مواجهة المرفأ الجديد، أقف مغمغمًا عينيّ على «بندر - زناجى». أقف مغمغمًا حتى لا تفارقنى جسوم الزنج والعبيد. حتى أستعيد من التاريخ ما سرقه منى. حتى أرى خواتم السادة وألبستهم الحريرية تتزهزه فى بياض الماء. فى معيتهم رجال عضلون يسوقون المراكب إلى الريح.

جُبَيّل - جزيرة، هو «بندر زناجى»، هذا. فيه كان الزنج يباعون في سالف الأيام. عليه أرى آثار الزرد والقيود. ومن أنحائه تشع أبخرة اللحوم المشوية على القضبان. لونه الأسود فى بلد ملئ بالنور لا ينبئ عن حاضره وإنما عن ماضيه. ماضى الإنسانية الذي ولىَّ إلى غير رجعة.

لماذا كل هذا الحنين، إذن؟ ألأني سأرى حوله، لأول مرة، نوارس المحيط تصرخ متغالبة على فتات الماء؟ أم لأن الوحشة التى تحيط به، الآن، تؤكد أن على الكائن ألاّ يألف المكان؟

(١٠)

في مقهى السوق الداخلى أقعد محتميًا من سطوة الشمس. الشمس التى أشرقت منذ قليل. بشر هادئ وحطامات. أقمصة بيض تشق فضاء السوق المزدحم باستمرار. أقمصة بيض

لرجال عبس الوجوه، تتخللها أخرى سود لنساء تعودن الخنسة والصمت. نساء بلا وجوه. ولا أجساد لهن، لا شئ آخر سوى العيون. عيون الرغبة المختبئة فى القلب.

يذكرني السوق الصغير فى «مطرح» بسوق «الحميدية» التاريخى في الشام. لكن الحجوم تختلف. وعندما تختلف الحجوم تختلف المصائب والأشياء.

على مصطبته الحجرية أجلس. أجلس بين أحياء ملفوفين بالبياض. ليس فى أفواههم ألسنة. ولا في حناجرهم صوت. وحدها، عيونهم الزائغة تنظر إلى حيث المحيط ينام مثل أسد شبع من فريسته، للتوّ.

لماذا أجلس في ذلك السكون الذي لا حركة فيه، ولا نوء؟ الأن الجلوس فى المكان، مثل عناق الكائن، يقربه من القلب؟ أم لأن الجلوس، عبر السكون المطلق، يسمح لنا بالنظر إلى الأشياء من زوايا لا نهايات لها؟ زوايا تنطلق منا وإلينا تعود. ألهذا بدأت أكتب، منذ أن جلست، وكأننى صرت أرى أبعاد الكائنات الخفية!

«مسقط» المكشوفة للشمس، هذه، تختبئ أسرارًا لا يمكن التكهن بها، ولابد! أسرار لا تجدى مقاربتها، ولا تجوز. هذا ما

صـرت أفكر فيـه، جـالسًا كـالتـائه على المصطبـة الحـجـرية. كالتائه فى حماد شاسع أراد أن يستريح قبل أن «يتيه» أكثر.

لماذا أعـذب نفـسي بمحـاولة اكتـشـاف المجـهـولات التي لا تسـتحق الكشف؟ لماذا لا أشـرب، برحـابة صـدر، كـأس الشـاي «السليمانى» الذي قدمه لي هندى المقهى ذو اللطف المشع كما الضوء؟ بل! أشربه، وعلى الفور.

بعد أن أغادر المقهى أعود إليه. أعود بعد أن أمشي الأسواق الضـيـقـة المتـفـرعـة منه، كلهـا. هنـد، وحـبش، وأفـانـين. ألوان ضوئيـة تشع من القماش. وألوان ترابية تخالط الوجوه. أجنحة مقصـوصـة للطـواقى. وكـائنات ملطّفة وكـأنها خـرجت للتو من مـعـقـمـات عظمى! كـائنات بعيـون هادئة ومـرتابة. هيـاكل بلا صوت! لكأن حرارة الشمس اللاهبة أنستها الكلام.

لماذا ألحُّ بالسؤال على السكون؟

الواحدة ظهرا، يموت السوق، كله. يكفّنه أصحاب الدكاكين المتـلاصـقـة بأكـفـان ملونة من الـهـدوء. وبلمح البـصـر، تخـتـفى المعروضات الكثيرة من الفضاء. لكأنها لم توجد، أبدًا

وحـدي، أظل جـالسًا على مصطبة المقـهى الوحـيد بعـد أن امـتـلأت شـمـسًا. في مـواجـهـتي البـحـر وعنف الضـوء الذي

استسلم له الكون. حتى هندي المقهى اختفى، فجأة، وكان كثير الحركة والسواد. اختفى وكأنه لم يطأ هذه الأرض بقدميه.

(١١)

غدًا سأغادر هذى الصخور، وهذه الأتربة المنثورة كالذهب على الأرض. هذه الحشائش اللاصقة بالتراب وكأنها تتشبث محتمية به من الموت. وهذه الوجوه التي تريد أن تقول شيئًا، ولا تقول. سأغادر عين الشمس اللاهبة، هذه، وفوهة المحيط المليئة بالزبد والنوم. هذه القمم المتصلة بالسماء سأغادرها، أيضًا. وأى جدوى من إقامة تطول فى فضاء لا يُولد إلا الدهشة والسكون؟

شيء واحد سيلاحقنى إلى أمد طويل: غبار الضوء الطائف فى الفضاء! معه أردت أن أطوف المجال بأنحائه، باحثًا فيه عن الروعة التي أسرتّنى. كنت أريد أن أشبّع بها، علّني أقارب ممارستها، ذات يوم. كنت أدرك أن ذلك مستحيل، وهو ما كان يملؤني بشغف غامض وأكيد. أيكون الشوق، إذن، هو هذا الشعور العذب بالعجز الذى يفيض منا بلا حساب؟ بلا حساب ربح أو خسارة.

فضاء يحكي وهو صامت. وأحسنى أثرثر دون أن أقول شيئًا. غزارة الضوء ونصوعه يضعان الكائن فى المكان المناسب له، وفى غيره، أيضًا. يكفى أن تمشى لترى. وأن ترى لتدرك. لتدرك كل شيء: جبال!

جبال مسننة ومتلاحمة، حادة الرؤية والمناقير، لكأن البحر نزح، للتوّ، عنها. جبال ظامئة وملهوفة. وديانها ضيقة وعميقة، جبال حُمر، وأخرى صُفر، وأخروى سود. حتى ضوء الشمس الخارق يعجز عن توحيدها، إن لم يُزدْها اختلافًا.

(١٢)

قبل أن أغادر سأعود، مرة أخرى، إلى السوق. سأشتري بخور «صلالة» وعطورها. وأرى حصير السقف الملون بالخيوط. أرى الفوانيس المذهبة المدلاّة بأناقة منه. وأظل أسير حتى أخرج من الظلمة إلى النور. ولكن، ماذا يعني النور هنا غير صلافة الشمس التى بدأت تستقر فى رحاب الكون؟ إلى مقهى السوق، إذن، من جديد. المقهى الصغير الخاتل بين الدكاكين وكأنه يحتمى بها من اللهب. لكأنه يخشى أن يسحبه المحيط، عنوة، إليه، واضعًا إياه في حمأة الشمس التي لا ترحم.

في آخـر الزقـاق ١١٤، عند تقـاطعـه مع الزقـاق ٨٣٩ (هنا ليس للشوارع أسماء!) أظل جالسًا ومطيعًا.

جـالسًا، لا أنتظر أحدًا. ولا أريد أن ينتظرني. رغوة المحيط وبَهَر الشمس يكفيانى. أجلس بهدوء مطلق. أكاد أن أتخلّى عن مشاعري القديمة، وعن شواغلها! أكاد أن.. كيف يتمرد الكائن على الشمس؟ كيف لا يمنـح توتره القديم للريح، لريح البحـر التي لا تجيء؟

في سـوق «مطرح»، فى تلك السـاعـة، من يبقى غيري؟ لا أحـد سوى الأقـمشـة الملونـة والجـدران. حتى نوارس البـحـر اختفت، فجأة، وكأنها تعرف ساعة الخنوع. لا أحد غير حمالي العـجـلات، ذوى السـحنات المصفـرّة من السـواد. هـم الآخـرون، كانوا يقعون على عتلاتهم ليستريحوا، هنيهة، قبل أن يبدأوا البحث عما سيثقل ظهورهم من حمول. إنهـا الواحـدة ظهرًا. وهي ساعتهم، أيضًا. ساعة الدكاكين التي لبست أكفانها الملوّنة مثل العرائس المختبئة في النحيب.

أكتفي بأن أحدق، في صفحاتى، هذه و صامتًا. أكتفي بلا شيء فى مـقـابل كل شئ! أعـرف أني لـن أكـون هنا غـدًا. لماذا أُلون يومي ببشـاير لن تجيء؟ لماذا أصر على ملء الفراغ حولي

بنفـايات روحي التـيـيـلاكنه لهـا ولا قـوام؟ ذلك، كلـه، لن يعـوض خسـارتى بعد اكتشـافي، الان، لما كان عليَّ أن أكتشـفه منذ أمـد طويل. ألهذا صرت أشعـر باضطرابات عظمى تعتمل فى داخلي، حتى اننى لم أعد أعرف شيئًا مما كنت أعرفه، من قبل؟ أتكون معـرفة الكائن ويقـينيّته هشـتين إلى هـذا الحد؟ كيف سأركن إلى ذاتي، بعـد الآن؟ ولم لا أعتـرف بأن «الحقيقـة» لا وجود لهـا في الواقع! وأن «صـورتهـا» هـي الوحـيدة التى يمكن الركـون إليـهـا، صـورتها المتجسدة في هذه الألوان والهيئات، قدامـي.

(١٣)

عندمـا انتـهت إقـامـتي، أحسـسـت إنني بحـاجـة إلى إقامـة جديدة لا ستيـعابهـا. للتخلص مما تراكم في أعماقي من جبال ومن مـحيطات. ممن سـار فيهـا من كـائنات صـامتة بلا صـوت. كـائنات أحسـهـا سـتسـقـط مثل تفـاحة مـهتـرئة في حضـيض الضـوء.

كنت أتمنـى أن أتقـرب، قليـلاً، من الكائنات التى أراها. لكن لمس الأشيـاء، هنا، أصعب من لمسـة الجمـر. حتـى أن الكائنات تبـدو وكـأنهـا مـخلوقـات فـضـائيـة لا يمكن الاقـتـراب منهـا، مخلوقات محمية بهالات عبورها أشبه بعبور الجحيم.

هنا، شيء واحد يفرض نفسه منذ الوهلة الأولى: الغياب!
غياب «النقد والاستياء». لكأن الحياة عُقمت بمنهجية صارمة،
وتحولت كائناتها إلى كائنات مسحورة تعيش في عالم وهمي!
لكأن «تفريغ الكائن» قد تم هاهنا بصورة مثالية، حتى
لتخالطك الرغبة فى نهش نفسك، وفي «نقدها»، من أجل أن
تعود «إنسانًا»، من جديد.

عند الفجر أسافر عائدًا. أسافر وأنا ألمح من بعيد «أول
بقعة عربية تشرق عليها الشمس»، تلك التى جعلتني ألتهب
شوقًا حين وصولي.

أسافر وأنا أتلمس نفسي متفقدًا: لكأنني نسيت شيئًا منها!
ولم أنس سوى طمأنينتى. طمأنينتى التى جئت بها، ذات يوم.
طمأنينة اليقين الخادع بأن العالم هو ما ألفناه. وهو، فى
الحقيقة، شيء آخر.

ولكن أنى للسكون أن يستوعب الحركة؟ وأنى للكائن أن
يدرك آلاف الرؤى والمصائر؟ اللعنة.

# طنجة ذات البحرين

دخلتُ طنجة.

شيء ما يزعج المدينة. يؤذيها.

قلتُ الشيء، الشيء، هذا أريد أن أراه . أن أمسك به – أن أحطمه. ان أ -

في وجهي «الغامض» انتشر السكان. سكان المدينة التي تدبر للجنوب ظهرها. ولا تعطي وجهها للشمال.

انتشروا هياكل. هيكل بعد هيكل. أغمضت عيني،. أبحث عن بعد (عن أى شيء يمكن للمرء أن يبحث عندما يكون في طنجة؟!) صورَ ملس، مستديرة . صور عمياء. . صورَ متعددة لصورة واحدة، كانت تمرني بلا انقطاع، منذ نور طنجة الخارق عيني.

صور؟ ألم، فيء. انتشاء، اختلاط الرهبة بالرحبة يستبد بي وأنا أمسح البحرين والبرين.

•••

في قمة الجبل أتهادي.

أري المدينة ولا أراها. مدينة تركبها الريح، وهي تركب الموج. مدينة الشمس والماء إلي أين.. تسير؟

الضوء المستبد يشغل النفس عن التفسير. يجعل الإحساس يفور مثل بركان يتهيأ للتفجر أول مرة. بركان سعيد بأزاحة الضغوط عن نفسه، والانسياب بلا قيود علي القاع.

برفسة أترك الجبل والمنظرة. ألوان الوجوه الممصوصة. إنصاف الأجساد المطموسة.. أنحدر كالنيل. أعبر الأنواء الزيتية الشاغلة، أمر بالعيون التي لم تعد نورا. اخترق الساحات والهذيانات. اركض. اركض، لكأنني علي موعد مع الريح.

كالبرق ألجُ اليمامة. قاعدا الحق الماشين: مؤخرات لا سمات لها. مؤخرات مسطحة وعصبية. أكوام من الاجساد المتلاحقة بلا قصد.

أتطلعُ. أظل اتطلع. صامتا. ليس بي رغبة في الحديث. أصير عيونا، كلي. الوجوه. الوجوه الآن. وجها ، وجها،

أتملاها، أتملى الذاهب والآيب: لا شيء. ابدا، لا شيء. هياكل متحاركة تعبر فضاء ساكنا بلا انقطاع.

أين يختبئ ذلك الشيء التي يزعج المدينة. ويؤذيها؟ أين؟ (أكاد انادي، ولكن...)

•••

اترك اليمامة. أجلس ، فورا، في مانيلا. يكفي أن اعبر شارع «باسطور»، المكمل، رأسا، لشارع «محمد الخامس» اعبره فقط.

من «اليمامة» إلي مانيلا أكداس الجلود بلا لابسين. محافظ السفر بلا مسافرين الكحل بلا عيون، الشفاه اليابسة بلا قبل. السحن الصفر بلا أمل.

شحوب كوني هائل يعبر معي ويقيم. بين اليمامة ومانيلا وعالم واحد لا يتغير. عالم يرتجف من التوتر والبؤس، عالم كيف لي أن ادركه قبل أن يدركني وينساني؟

•••

طنجة:

أعمي يقود مبصرا. الصورة القديمة، نفسها، شيخ أعمي، مبصر فتي، الأعمي يحمل كيسا هائل الحجم، يمشي بلا تلعثم، يكاد يري، أنه يري حقا، وهو، مع ذلك، أعمي.

الأعمي والمبصر يروحان ويجيئان. يفعلان ذلك عشرات المرات. الفتي المبصر لا يدل أعماه» يمشي به وحواليه، يتبعه كمهر يتبع أمه.

بلا اهتمام يتحركان، يمران بالناس بحياد مخيف . لكأنهما لا يعرفان أحدا من احد. عم يبحثان؟ عن الشيء الذي ابحث أنا عنه؟ عن غيره؟ من يعرف نوايا الناس في طنجة؟

منذ متي وهما يمشيان؟ الشمس الحارقة لا تخيفهما؟ لا الشمس ، ولا القمر؟ ولمَ لا؟

ألم أرهما يذرعان هذا الشارع السابح في الجحيم مرات ومرات، دون أن يعثرا علي منفذ لهما؟

إلي أي نحو ينفذان؟ كيف يمكن للكائن أن ينفذ من بؤسه، إنْ لمَ يعثر. أولا، علي نفسه؟

اترك مانيلا. أعود إلي «اليمامة» اعبر «باسطور» بالاتجاه المعاكس للاتجاه التي عبرته من قبل.، أقطعه من «ساحة فرنسا» إلي محمد الخامس، قبل أن أصعد يمينا في «موسي بن نصير». علي الناصية، تماما، التقي بهم: بأدب ينتظرون.

الشمس طالعة وجميلة. البحر هادئ وقريب، لكنهم يديرون للبحر ظهورهم، ولا ينظرون الشمس، علي أحر من الجمر

ينتظرون. حــراس فندقـي، براندیت و فــلاندريـا، هم، أيضًا، ينتظرون ينتظرون البـاص التـي سيـقل الشبـاب إلي الغيـاب: يقلهم بلا تعيين / سرية المثقفين.

يقلهم، أم يقلونه؟ أي فـرق طالما أن المسـافـة ستـخـتـرق في النهاية؟ مسافة الضوء والغمام، حيث ألوان البرق علي جدران «أصيلا» تبعث الاضطراب في قلب الرائي وفي مقلتيه.

عند التقاء البحر باليابسة التقينا.

التـقـينـا صـدفـة علي أرض لا تعـرف الصـدف. التـقـينا بلا قصـد، وافترقنا قصـدا، تركتهـمـا يتهامسان ينظران حولهما بلا احتجاج أو ضغينة، لكأن الحياة لم تسفر لهما، أبدا، عن وجهها القبيح. (يا للهول).

•••

علي قـمـة الجـبـل الذي كـان مـقـابلا لجبل طارق، التـقـينا وافتـرقنـا، فـورا، تركتهـمـا يأكـلان، يلتهـمـان الضـوء والفـضـاء. أحـمـد وحـمـادي»،، كم مـضـي من الوقت؟ وأي زمن استـخـدمـا؟ زمن البيـعـة أم زمن السيـعـة؟ مـا جـدوى أن تعـد/ مـا جـدوى أن تعـود: المزة، الصـالحـيـة، الميـدان . أكـراد، المهـاجـرين شـاغـور، العـجـمي، التنبـاكي، كـوسـمـوس، اونيـفـرس، الاقـفـيـة المخططة

الطويلة، البشر الذين هم بشر تقريبا، وهما ، وحدهما، يلتهمان كل شيء، وفي حدهما الجوع الجوع العامر، الجوع الغامر، ابن حدث هذا، كله، ومتي؟ في طنجة؟ في دمشق؟ فيهما معا؟ كله، طنجاوي، طنجاوي فقط؟ وهؤلاء التعساء/ من صبية وجهلاء/ الباحثون في مزابل الطريق/ عما يسد النفس، اويبل الريق/ اما رأيتهم ، قبلا. هناك؟.

- اسمك؟

- هشام.

- عمرك؟

- تسع سنوات.

- نذهب إلي المدرسة؟

- نعم.

- في أي صف انت؟

- سأصف العام العام القادم.

- تقرأ؟

- لا. ما أنا بقاريء.

واحسني أرتجف محموما. وأنا اتناءي. في حرارة القيظ الباهظة عنه، كتلة الضوء المتسلط تمنع الحركة، كما تصنع السكون، تجعل اختلاط الذات بالآخر أمرا لا مفر منه.

كيف لي أن افر وهشام يلحق بنا باستمرار من هنا «القصبة» ومن هنا الفراند سوكو» (السوق الكبير). من هنا البيتي سوكو (السوق الصغير). وهناك ضارب الدف والاقعوان. وفي الداخل المرأة الجنية، ذات المخالب الليلكية. و...

وأري في عيني هشام بريقا عجيبا لكأن عينيه مصنوعتان من اللؤلؤ والتمر. يضحك بحيا. أسر، وكله فرح، لكأنه هو الذي افسح للعالم، في هذه المدينة، الفضاء.

•••

هشام يضع لنفسه حدا. يقف لصقنا وهو بعيد، وفجأة يشير بأصبعه الطفولي الوسخ، يشير في ثخانة الهواء، الذي سكنَ من شدة الحر، انظر. انظر. وننظر، معا، الكوبرا الهرمة، تدخل امرأة شديدة الهرم. تلتف حول جسدها الذي تهدم. ونري الرعشات تكتسح الهيكل الشاحب. عشات التوتر والحبور، العجوز التي كانت صفراء قاحلة صارت كتلة من جمر. كانت الكوبرا المدربة تنصلقِ كالصقر التي رأي صيده المحتوم في متناول مخابيه.

إلي أي الجهات كانت تتحدر اللعينة؟ وكأن هشاما فهم القصد، أدار برأسه اللطيف بعيدا عن الحفيف.

•••

الكوبرا السوداء. تتلوي حول خصر الشمطاء. وبعد أن تلامس الحلمتين، تريد أن تعود. وتمنع. وتروح تمشي إلي السرة. ومن عمق الخط يأتي فحيحها مكتوما. كم مرة أدت الدور/ وكم جلد لجستٌ؟ وكم شمتٌ من ثنايا وأباطين؟ وتريد أن تعود، ومن جديد، تمنع: لا. خشي الغار، وطفي النار، يصرخ بها الصاروخ.

وبغتة، تسقط العجوز البلهاء. تسقط في عين الشمس،

ساحة مدينة فارو.

الناس هباب، الأرض، الأرض تلتصق بالبحر، البحر باليابسة، الناس يتلاصقون، في الساحة ثلاث صور كبيرة، ترقي اعمدة ثلاث، تنيرها أشعة عمودية. ماثلة، وأفقية. الصور تعلو الناس. الناس لا يعلون عن الأرض.. التيمة القديمة نفسها: كهل يقرر، يافع يبرر. العالم لم يتغير اذن؟ (هل سيتغير؟)/ لكن طنجة لا توحي إلا بالعكس (والعكس

دائمـا هو الصـحـيح). هذه الكتلة الهـوجـاء التي لا تكف عن التحـرك. وهذا الـذهول المفـجـر للسكون.، وهـذه الوجوه التي لا يعكر صـفـوها شيء (ولا شـيء يصـفـي عكرها) لا يمكن التنبـؤ برغباتها، ولا بما تنتويه.

•••

ساحة مدينة فارو. من جديد.

ساحة المدينة التوأم. زنقة البحتري. (سابقا زنقة تولستوي) قادتني سرًا إلي الهاشمي صائد الغزلان والرجال في الهاشمي رأيت الرجل «الروبيـو» (الأحمـر) لا. اسكت قليـلا. الآن.الأنف مكسور، النظر مقهور، شـيء مـا يزعـج الروبيو ويؤذيه. الروبيو يحـمـحـم . يريد الانـطلاق، ولا يقـدر. يروم الانعـتـاق من ربقـة المكان، ولا يقوى، يرى العالم ملك يديه ولا يملك منه شيئا.

هو يحس ذلك. يحسـه دون أن يفـهمـه، ولا يهـمه أن يفهم مـا لا يفـهم. كل مـا يهـمـه هو إحـسـاسـه العنيف بـأنه مـازال حـيـا، الزوبيـو فـاض مـن قـبل علي الأمكنة والسـاحـات الآن، صـار لا يملك من العالم الا ما يملكه النظر العابرِ للناظر.

فـجـأة، يصل «مـحـمـد» يصل ويرقي، فورا، كـرسـيه العـالي. كـرسـيـه الخـالـي، يجلس منطويا، كـمن لم يخلص، بعـد، من

تهـوراته الـتي لا تعـرف القـرار، مـحـمـد يتـململ لاقـتـرابات «الروبيو» المتكررة منا، ولا يحكي، يري إلي ذهـولي واضطرابي، ولا يحكي،. كنا نأكل صمتنا، وصمتنا نحتسي الليل.

«الروبيـو» فـوقنا يهـمهم. يريد أن يمتطينا. فجـأة. يخـبط العالم، يخبطه بقبضته الحمـراء «المنمشـة» يري إلينا، ونحن نمسح البلل والصمت، ويتعجب: هذا الشيء الذي يسد منافذ نفسي أن اخلص منه.

«محمد» يظل صامتا، لكأنه لا يفهم اللغط حوله، «اللووبيو» يبـدأ الطنين. مـحـمـد يتـجـاهـل،. وأنا اتسـاءل (أحب الغناء، الحـزين عندما لا يكون غناء. حقيقيا). وفعلا اصيـر اغني مع «الروبيو» الذي يبدأ تسيده المعهود ليـلا. محمد يعرف ذلك وينسـاه «الـروبيـو» يهجم عليه، رافعا قبضتيه: تذكـرنا واخـا. تتكرنا واخا.

•••

زنقـة «خـالد بن الوليـد»، أصـعـدها حـتي الفم، اختـار ركنًا قصيا فيها. استند بهدوء علي الحديد البارد. لصقي امرأة صـغيـرة الحجم، تسـتند، هي الأخـري، عليه، امـرأة سـمـراء. سـوداء. زيتيـة البـشـرة ثوبهـا أصـفـر منـقط بالأبيض المدور

والمحصور. انفها عدل مستقيم. عيونها سود لامعة. حذاؤها ذهبي أبرق. لا تلبس جوارب. تضع كفها حاجزا بين ردفها والحديد. ومثلي، تنظر شزرا في الناس.

امرأة وحيدة في طنجة. رجل وحيد فيها. أنظر اليها. تنظر إلي الناس. تنظر إلي. انظر إلي الليل الطنجاوي الهاجم (الليل التي كنت إراه يتعجل المجيء لسبب لم أكن ادراكه بعد).

اكاد اراها تضحك وهي تحرك برقة قدميها. تلمهما، وبعد أن باعدتهما باغراء. تحسهما بطنا ببطن وكأنها نلعب بهما لعبة الليل. تفعل ذلك وهي تنظر قبلي، وانا انظر قلبهما: قلب طنجة الذي بدأ يظلم الآن ، اكشف (بلا قصد) سواد الجمع الغاطس في المساء: جمع الصبية والعصافير. أتعمد الا افكر اريد أن اخلو إلي نفسي (قبل الرحيل). لكن الجسد الصغير الملاصق لي لا يحل عني، استدير عنه قليلا، لأتحاشاه. اقع علي البشر المترغبين في القاع، بشر صار يستثيرني بعمق. اريد أن اراه بشكل افضل. لكن المرأة الصغيرة لا تكف عن الحركة ، لصقي، تهزني وهي تتحرك متفقدة أعضاءها (وكأنها ضيعت عضوا منها). تتفقد بلوغه، أقدامها المدحوسة في الجلد، شعرها المفلوت بعناية، زنديها اللذين بدأ الارتعاش البارد يغزوهما. كفها الفاصل بين ردفها والحديد. و..

بتصميم امشي. امشي وحيدا. اخلف المرأة الصغيرة في ركنها القصي. وحيدة. المرأة الصفراء في ليل طنجة الاصفر: المرأة الشهية في الساحة البهية،

•••

زنقة بعد زنقة أمشيها، طنجة.

أحاذي القصبة في الليل. أري البحر البعيد. الناس القريبين، الأشجار المختنقة في العمق. الأثواب المطروحة علي الأرض بأهمال الأضواء الهباء التي تلون الصور الثلاث. الوجوم القاهر الذي يكاد أن يكون معديا: وجوم البؤس الصارم والاستياء العميق (أي هم ينهمر علي المدينة والليل؟)

الزنقات تتوالي. الزنقة الأخيرة قادتني إلي مقهي باريس الكبير. اتوقف قبل الولوج. أحسني غريبا. يعكر مزاجي (المعكر أصلا) مرأي الاثواب الزاهية، الأقمشة الموشاة. وجوه الحسان المزيفة الألوان. الحركات المغرضة الناعمة، محافظ الجلد اللامعة. سحن الرجال الملسّ. لا.

لا دخل مقهي باريس الكبير. اعود القهقري إلي الساحة.

فيها، أحسني في مكاني. في الساحة كل شئ يلتصق بكل شئ (ثمة حياة أخري في الساحة) الناس ذوو الوجوه القاتمة

النهمة بتعاركون، فيها. نظرا، بلا انقطاع. لكان حربا خفية تدور بينهم حرب، هي حرب الحياة الحقيقية ، ومع ذلك تتلاصق أجسادهم بلا تواصل، ولا يحملون لبعضهم ضغينة او حقد.

منهم من يظل واقفا على قدميه طيلة الوقت، وكأن الوقوف المستمر عقوبة لا تبلغ حدها. ومنهم من يرتكي علي القضبان، أو يتكي قرب امرأة تفوح الحرارة منها، منهم من يأخذ القاع بجسده كله وكأنه يحس، عبرها، بأجساد الآخرين، جميعا.

ما أذهلني فيهم، أنهم يتوجهون جنوبا وهم ينظرون بذهول، وكأنهم يتهيأون لطيران بعيد. مثلهم، أتدلي علي أطراف الحديد المستوي كالسيف. أغمض عيني عن الأضواء. ولا أعود أسمع في البعيد سوي الصوت: صوت البحر المتشاجر مع البر.

•••

وأنا في الليل أحاول أن استعيد النهار.

البارحة أخذتني مسعف إلي الجبل. أردت أن اري سقوط الشمس الشرقية في العين الحمئة. سقطت في التراب. نصفها يضحك. نصفها يبكي، نصفها الآخر عكر ومكدور. صرت أصبح: خلني الي البحر. خذني. وضحك مسعف من فورة

الجسد الطائشة عند الغروب. ضحك، ولم أضحك . كانت الطبيعة تسحقني بين شقيها: صفرة حمراء، كالدم الذي انهرق منذ ثوان تخيم علي الفضاء الغربي. وسمار فضي باهت يملأ الأفق الشرقي . وأنا بينهما أتشظي. قلت انظرُ.... الجنوب. وفعلا نظرت. وسد نظري. مسعف. وهو يميل. يميل ليلتقط شذرات الضوء الهارب من الشمس والساقط تحت أقدامنا في التراب.

•••

أترك مسعفا وأعود إلي الناس. ماذا تعني الطبيعة بلا وجوه والريح بلا حركة؟ والغروب بلا فوران عميق؟

أعود إليهم عجلا وشغوفا: هذا الوجه اعرفه. وهذا ايضا. والرجل الأعرج. ذاك. وهذا الناحل المضطرب الساقيين. والهيكل الممصوص. هذا. والمرأة البدينة التي تهتز دون أن تمشي، هذه، لكأنها امرأة. «سوق ساروجة، القعيدة تلك التي كانت تهز ثدييها كلما مررنا بالقرب منها .. وتلمس شمس دمشق الحارقة، ردفيها، وهي تنظر أواسط الرجال. وهذا الناهل عما يحيط به (من خبر وضير) ألم أره. من قبل في الحجاز والرجل - النصف ، هذا، المخبيء حاله في كيس

يسحبه تحت إليتيه هو بلا شك، رجل الموجة في الشام وهذا الذي يغير هيئته كل آن، أو ليس هو العبان باب مصلي في الميدان؟ وهؤلاء الصبية المتسابقون هونا هونا أمازالوا يجرون في ضواحي المزة يتصيدون باهتمام بالغ ذباب الساقية المليئة بالنتن، مالئين اكياسهم المطاطية من ضفادعها الكسيحة، ومن أسماكها المشوهة ذات الأجنحة الآخذة بالتآكل؟

هذا ،، كله، ممكن وغير ممكن، في الوقت، نفسه، لكن الرجل الكسيح، هذا ، الزاحف. بعنف، على مؤخرته المحمية بالجلد والمطاط هذا الكائن، لا يمكن أبدا أن يكون أحدا آخر غير كسيح «باب توما» اللئيم.

ركب الماء. ركب الهواء. جاء زحفا. جاء. كيف جاء لا أدري لكنه هو الكسيح القديم، نفسه، ذو العيون العدائية الساخطة، والفم الشهواني المكتوم: الرجل المأزوم.

•••

بعد قليل اترك طنجة

أتركها ، نهائيا، كما تركت الشام. لا. لا أريد أن أعود إلي القصة. من جديد. قلبي مل وجوه الناس البؤساء. نظرات الأطفال الجوعي. ظهور الرجال المثقلة بالملل والانتظار. النسوة

المتمهلات في سيرهن، وكأنهن يبحثن، معي، عن ذلك الشيء الذي يزعج المدينة، ويؤذيها.

نسوة عجاز، متسربلات ثلاثا، ثلاثا. أقاربهم حتي اللماس، معهن ، انظر لقمر الذي لازال دانيا: قمر طنجة الأحمر البطئ الذي بدأ (للتو) يشق البهمة الذي إخذت تحيط بالأرض.

•••

فجأة ، أترك اللجة حولي واقصد الجبل. الجبل الذي لم يكن مقابلا لجبل طارق، ولا تابعا له. جبل الجبال العالي. أريد أن أري وأن أدرك (وهل ثمة إدراك بلا حركة).

وكأن أحدا يسوقني بعصا سحرية، أركب الموج. الموج الدي يبدأ ابتعاده اللا متناهي. اتبع أحصنة الضوء المتطاردة في الفضاء. اقطع البحر الذي يوصل البحر باليابسة. واليابسة بالبحر الآخر: بحر طنجة الثاني الذي يوصل بر دمشق ببحرها. أجمع البرين والبحرين، وأنا أنظر بإمعان. أنظر في كل شيء باحثا عن كل شيء.

بلي، هذه الطريق الصاعدة بتكاسل هي طريق الشام القديمة، نفسها، وهذه الدروب المنحدرة الي المجهول، هي،

نفسها، دروب الشام» المنطلقة من الجبل إلي الوادي. وأكوام القمامة السود المتراكمة، هذه، والحفر المتعاقبة بانتظام يفقد العقل توازنه، وحواف الطرق المكسرة، وبطونها المبقورة. والجادات المهشمة. هي. هي. (لكأنني لم أترك الشام، ابدا).

وذاك الانبساط الأرضي الفسيح. المحاط، قليلا، بالتلال، وبالوديان، قليلا، والذي تهيمن عليه الأكمات الخضر، الزرق، الفيروزية، هو، نفسه، الانبساط القديم الذي يفصل الشام عن «حوران».

و«الجزيرة عن حلب».

و«حمص عن حماه».

والريح عن مداه.

# وجه الدانوب المشرق

لمَ نسافر؟

أي جواب ممكن علي سؤال بليد، كهذا، غير جمال مدينة أخاذة، لم نألفها من قبل، مثل (بودابست)؟ جمال يسحق بشاعة الروح، فورا، ويحررها من الالتصاقات.

ولكن، لم نتساءل عندما يكون العالم، كله، بين يدينا؟ ومع ذلك أكرر السؤال الغبي، نفسه: لم نسافر؟

«يا إلهي كم هي جميلة »! كان ذلك أول ما ملأ رأسي من كلام فارغ وأنا انظر في فضائها الممتلئ بالنور. لكن القبح الذي ينز من جملة التعجب، هذه ، كان يخرب كل شيء.

يكشف عن قصور الفكر عن الإدراك، وعن عجز اللغة عن التعبير. عن التغيير.

اترك اللفة مرمية علي القاع، وامشي على حافة الدانوب أقف، أقف متمليا نور الشمس المليء بالبهجة والصمت . نور يتجلي فرحا علي وجوه المارة والسائرين. أيكون لانصبابه المتبختر في الماء علاقة بذلك الشعور الغامر من الاطمئنان؟ أم أن ماء الدانوب التي تمتص وهج الشمس هي التي تجعل منها شمسا أليفة؟

شمس يمكنك أن تنظر فيها دون أن تطرف عيناك، وتعطي لها وجهك وانت تتنفس بهدوء.

تحت نورها الباهر يتربع ‹البرلمان› بأعمدته المرمرية يتربع بأبهة علي حافة الماء وكأنه يعلن للرائي عن مزاياه: مزايا الحرية التي لا بديل عنها إذا ما شاء المرء أن يكتشف جمال العالم وبهاءه.

بلي! كنت جذلا وسعيدا. سعيد لأن (الدانوب) يختال ضاحكا. لا تغطيه هياكل السفن المملوءة بالآكلين. ولا تلوثه أبخرة الآليات التي صرنا نقرف منها حتي من بعيد. جسد (الدانوب) يبدو عاريا ومكشوفا للريح. للريح التي تهزه هبوباتها وهي تلاعبه برفق. وما تطلب الماء من الريح غير تهييج سكونها، ونثر رذاذها في المحيط؟

عناصر الطبيعة «الأساسية» كلها تجمعت هنا: الماء الخضراء والوجه الحسن، عناصر حياة لم تتلوث، بعد. لم تلوثها نفايات البورجوازية الخمجة، وسعارها الاستهلاكي القبيح.

بساطة؟ بلي. ولكن ما أعظم «البساطة» عندما تجعل الحياة أقل تعقيدا وأكثر بهجة. لي، فقط؟ لهم أيضا. لهم بالتأكيد.

لكن الأغبياء وحدهم يعتقدون أن الكائن بمظهره. وسم ينسون أنه ليس بمخبره،. وحده أيضا، عقدة الحياة؟ بلي. ولكن من يبحث عن حياة «مبسطة» سوي الأغبياء أنفسهم؟

بين «بودا» و «بست» أظل أمشي. اقطع الجسور المترامية على «الدانوب» أحيي البشر الذين لا أعرفهم، ويحيونني. يحيونني ببشاشة لا عهد لي بها. لكأن الضوء المنطلق من الماء يجعل النفوس أكثر صفاء، والوجوه أطلق بشرا. لكأنه يمجد أماني المارة. ويحرر رغباتهم الخفية. بفعله، أنسي ، تمامًا، توترات وجوه «باريس» الكتيمة. الوجوه الملتحية والحليقة، معا، وجوه البؤس العميق الذي يتجلي نفورا بلا حدود، نفور من كل شيء، ومن الذات، نفسها، قبل كل شيء.

كنت، وأنا أمشي المدينة، أحاول أن افهم شيئا واحدا، فقط. أن أفهم: علاقة الكائن بالمكان. ولم يكلمني أحد غير الحجر والماء. ولم يكشف لي أحد غيرهما سره.

أخيرًا، اجلس في المصعد الخشبي المريح. المصعد المصنوع من خشب «الزان» اجلس لأرقي (ليرقي بي، بالأحري) القلعة القديمة: قلعة «بودا» المطلة علي «بست» حيث «الدانوب» المشع يفصل أحداهما عن الأخري. من القلعة أري الجسور، كلها، أري الماء منخفضا ووهاجا، واري «البرلمان» ذا الأعمدة الرقيقة التي لا تحصي ، وقبته الآجرية المدورة مثل نهد لم يلمسه أحد، بعد.

منها، اري المدينة ، كلها (اقصد «بست» لأنني أقف فوق قمة «بودا»)، اراها مرمية في السهول المبطوحة تحت الجبال العديدة التي تحيط بها. جبال من مرمر أخضر ومن شجر وماء. شجر يبث بلا انقطاع روائح الترينت والنارنج، وتتهزهز اوراقه بدلال كالغواني الذاهبات الي «النيل».

لا لم أعد أريد أن التقط صورا له ولا لهن. لأدع الماء. وحده، يحكي. ما قيمة البصرة إذا انغلق الذهن من شدة الجمال؟

وصقر القلعة العملاق. هذا. ذو الأجنحة الممدودة في الريح، وقد خطف السيف مسلولا. إلي أين يطير؟ لا هو لم يطر. بعد. وكيف ينأي عنها وهو موكل بحراسة كائناته العظمي؟ كائنات قصر أحمر لم يعد يسكنه أحد سوي الخيالات: خيالات بشر اندثروا وهم يعتقدون أن الكون ليس ملكا لاحد، غيرهم.

وعزف الكمنجة الحزين الذي صار يرهق الآن نفسي، من أي شق من شقوق البحر الأحمر الكتيم يأتي؟ حجر يغني. هو الآخر مثلي. تاريخه الضائع؟ وما أهمية تاريخ ما ضاع أبدا؟ تاريخ لن نعزف له الحاننا السرية، ذات يوم؟

والرجل النافخ في الصور، هذا والماء من بين ساقيه يسيل ،عم تراه ينبيء الكون؟ أتراه يحذره من سطوة سيف الفارس الواقف في الأعلى؟ أم تراه ينبيء الجمع بأن موسم الهجمة قد حان: هجمة الركب علي الغزلان؟ وأن الصقر الجاثم عند ركبتيه سينطلق للتو. وستنهش الكلاب، ذوات الخطوم المفلطحة، أركان الوحوش التي ستصيبها سهامه القاتلة.

لكن قرون الوعل المشردخة، والتي طعنت فارسه المهيب إلي حد الموت تشهد بأن الضعف، أحيانا ، قوة، وأن الماء لا يغسل الدماء باستمرار. ولذا، ربما، ستر رجل الصقر الخاشع وجهه

بجناحيه وبملاءة الصيد الملساء غطي رأسه رهبة وهو ينظر في الفراغ. في فراغ بلا أفق،. واشرأبت الغزالة بعنقها الجميل ناظرة في الشمس بلا خوف.

أخيرا . أتخلص من سطوة القلعة الساحرة علي، واجلس في الحضيض . علي ضفة الدانوب الأخري، أجلس هادئا ومستتبًا.

أجلس دون أن انقطع عن النظر حولي. أشجار وأبنيه حمر تتناثر في البعيد. تتناثر علي قمم الجبال المحيطة بالنهر. الجبال التي تسور ضفته الأخري، بحنان. ضفة لها الضوء والغمام. ولها النسيم الطالع من الماء كنسيم العصر المحرك للرغبات . اللعنة! أين هي «دمشق»؟.

•••

مساء أقعد في ساحة «فيروش مارتي» بالقرب من شارع «فاتجي أوجا» الشهير. الشارع المقابل لجسر «سيجيني - لانتهيد» الذي يقود القلعة الي الشطر الآخر من «بودابست» يقودها إلي السهول السارحة نحو الشرق.

في الساحة الجميلة، تلك، يتخالط الناس بلا حذر او خوف يتجمهرون حول موسيقي «الجاز» التي تعزف على قارعة

الطريق. جاز وشجر وكراسي خيزارن مريحة وفتيات. فتيات لا يحجبن أنحاءهن ولا يأتن. وأنا انتشر كالرائحة في الفضاء. في الفضاء البوادبستي الجميل. اي قدر قادني من الزيرة اليابسة الي هنا، ومن هنا يقودني إلي أين؟ لا سأظل قاعدا حتي مطلع الفجر، حتي تكف الطيور الصغيرة عن الهذيان.

جالسا في الساحة البديعة، كنت اتساءل: أين هي خططك وأحاجيك؟ أين هي خفاقك وسراياك؟ خفاف الجمال التائهة في الصحراء. وسرايا الماعز المتسلق جبل «عبدالعزيز».

ولكن لم تسأل الآن؟ وعم تسأل. وقد تجمع الضوء والبهجة والجمال بين يديك؟ لم أسأل! ومن له الحق علي عواطفنا حتي ولو كان صادقا في نقده لنا؟ لماذا أستجيب للبذاءة، إذن؟ وما هي البذاءة إن لم تكن كبح المشاع وتزييفها؟

الآن، صرت أعرف، اننا لن نستطيع أن نعبر عن رهافة العالم بسباحة اللغة، ولا عن غناه ببلادة الأفكار (ومع ذلك علينا أن نحاول). صرت أعرف أن الإغراء وحده، وهو الجميل: إغراء الذات باندماجها بالعالم. العالم الذي لا يكف عن التنائي عنها، برغم ذلك. ولكن، ألا يكفي أن نراه، أن نشمه، أن نذوقه، وأن..؟

صرت أعرف، ايضا، أن بؤس الكائن لا ينجم إلا عن الزيف، فالزيف، وحده، يجعلنا تري العالم بعيون مريبة، عيون لاتراه علي حقيقته، ولا تكشف له عن حقيقتنا.

تجعلنا نؤوله قبل أن نتمتع به. اللعنة.

# القاهرة الليلة الأخير

البارحة كنت سعيدا مثل ثعلب يطارد الريح، واليوم صرتَ حزينا مثل جمرة الحميض المنطفئة في «الخابور» لم أكن أعرف أن بك كل هذا القدر من التفاهة ، لم أكن أعرف أن بك كل هذه الحاجة للحب.

من «سليمان باشا» بدأت سيرك الليلي في الليلة الأخيرة تلك، ليلة القاهرة المحملة بالشغف واللوثان. كان أزيز السيارات التي تمر بك عجلي لا يثير في أعماقك الا اللهاث المنطقي. وكأنك بحر يريد أن يتخلص من زبده قبل أن ينام. ولكن لم كنت تضحك وحدك وانت تسير؟

في ساحة التحرير الشهباء توقفت قبل أن تمشي من جديد. توقفت تحت النور الخافت وانت تلاحق البشر المتغالبين. تلاحقهم بعيونك الكثيرة وأنت لا تري إلا ما يسمع توقفت وحيدا دون أن يتوقف آي منهم حولك او فيك، الليل العكر، ليل «القاهرة» الممتليء بشرا وآلات، وحده، كان يستولي عليك، لكأنك لم تعد تثق بأحد، حتي ولا بحواسك ، نفسها، كيف ستواجه هذا العالم المتآلف مع الغبار، إذن، كيف؟

قبل قليل تركت ساحة «طلعت حرب» وها انتذا تعود إليها، أو تريد أن تعود، إلي الساحة التي احببتها منذ أول مرة داستها قدماك. لأن الأمكنة تعرف كيف تسحبنا بهدوء اليها، لكأنها نعرف كيف تملؤنا بشغف خفي يظل يتراكم حتي يغدو جبا، حبا، لايقاوم، هذا المساء، أيضا، صرت تريد أن نعود إليها، إلي تلك الساحة الشاحبة لتتخلص من شعور طاريء لوث بهجتك وحماسك.

منذ سنين وانت تقعي قريبا منها. في زهرة اليبستان الملوث بالزيت، كنت تقعي مثل كلب أضاع أهله، منتظرا ما لم يعد ينتظره احد سواك علي قارعة الطريق تقعد وانت تحسو الشاي الأحمر الثخين الذي بذكرك بشاي «بادية الشام» تقعد

متربثا.، ويقعد حولك اصدقاؤك العبثون، أصدقاء الجلسة التي لا تتكرر. وفي المستنقع القريب منها أيضا كنت تختل تختل في الزاوية القصوي منه لتري أقل ما يمكن ولكي تري كل شيء كنت تقعد صامتا والصياح يتكاثر حولك، صياح رجال شهب نحيفو القوام يتلعثمون عندما يمشون وعندما يأكلون عيونهم حمر كالحة، وشفاهم يابسة كالقش كقش الجزيرة التى حرقته الشمس، ومع ذلك لا يأبهون، لأنهم تجاوزوا سن التوقع والانحياز. لا، لم يعد يتوقع أي منهم من إلي أحد شيئا، حتي ولا من الشجرة الوحيدة التي تظلل بابه، باب مستنقعهم الذي احبوه كثيرا دون أن يكترث أحد بذلك، لم تريد أن تعود، هذه الليلة، الي هناك،. إذن؟

كنت بحاجة إلي أحد، وكنت تعرف هذا الأحد جيدا، ولم يكن، أي شيء يمكن أن يعوض الكائن غير المكان؟ في الساحة الصغيرة، ساحتك المفضلة، تقف مبهوتا: ليس ثمة غير الغبار الدافق والسيارات البائسة التي لا تتوقف عن المرور وكأنما بجرها خيط لا مرئي، وبعض الجائلين بلا هدف، وحده التمثال الشهير يقف منتصبا فيها، وقد نام كل شيء. يقف منتصبا، متحديا رذاذ الرمل المنهمر في الحساء، في مساء الليلة الأخيرة، تلك ماذا كان بإمكانك أن تفعل، غير أن تقف لصقه

في العراء، في عراء ليل القاهرة اللا مبالي؟ لا، لم أكن أعرف أنك كنت تعتقد أن للأشياء أرواحا، وللتمثال هذا واحدة منها، ألذا صرت تحكي له عن حبوطك ونواياك؟

عندما بدأت الليلة كنت تتهيأ للضحك. لضحك كبير وكثير. لم تكن تدرك، بعد، أن القاهرة غيور. لم تكن تعرف أنها مثل ماء النيل تمشي عكسا، عكس، الخابور والفرات وعكس جفجغ و «البليخ». لم تراك ، إذن، تركت نفسك لذلك الشغف الآسر: شغف تحويل الأمكنة المستقلة عنا إلي أمكنة لنا نحن، لنا وحدنا، وهي التي لا يمكن أن تحيا الا بتعدد الوالجين؟ أي شيء يمكن أن يبرر تلك الحماقة غباء الكائن الذي لا يمكنه أن يدرك من نظرة خصائص الأمكنة والكائنات/ كيف تريدني ألا أو بخكَ هذه الليلة، أيضا؟

كان شعور بالوحدة، ومن أجلها يستبد بك. يدفعك إلي التخلي عمن حولك فورا، إلي السير وحيدا في ليلة القاهرة الأخيرة، تلك الليلة التي ملأتك بالحزن، الحزن الذي كان ينز منك وكأنه مطر ينبجس من صخور نفسك الذي لانت، فجأة، وغدت ينابيع. من أجل منّ كان ذلك الشعور المتفجر يتلاعب بجسدك الجث ويغريه؟ ولمَ كنت تتلامع كالبروق المخبأة بالقيم

وأنت تمشي وحيـدا تحت رذاذ الرمل الآتي من بعـيـد؟ رمل «الجــزيرة» أم رمل بادية الشــام؟ رمل الكلام المنطقي في الوحدة، أم رمل الرغبـة المنكسـرة في الأعـمـاق/ رمل؟ رمل أم سماد حطب البطم المتطاير في الريح؟

فجأة، فجأة ولكن بعد الوقت الضروري، تترك الساحة إلي الساحة الأخري. من «التحرير» إلي «طلعت حرب» ومن «طلعت حرب» إلي التحرير تترك الأمكنة الي أمكنة أخري، وتترك الكائنات إلي كائنات أخري غيرها، مع أنها هي هي بالذات. أية حيرة كانت تستولي عليك في ليلة القاهرة الأخيرة، تلك؟ ولمَ كنتَ تخشي عبوسا مع أن أحدا لم يكن يراك/ أيعبس الكائن، إذن، ليري نفســه، لا ليراه الناس/ ولكن من يحب الأمكنة لا تمتلئ نفسه بالعبس وهو فيها، ثمة سبب آخر من أجله لبستَ ذلك القناع: قناع العبسةَ التي لن تفرج. كيف لي أن اقنعك، هذه الليلة، بضرورة الابتسام؟ ابتسامة واحدة تكفي لتغيير كآبة الليلة الأخيرة هذه، ولكن من أين أجيء لك بها، وكيف أحطها علي شفتيك؟

بين الصمت والضجيج أعبر «التحرير» منطلقا إلي الماء، الماء وحده، يكفيني. ماء «النيل» الذي يبدو راسخا في الأرض، تلويت وأنا أقطع الشوارع والأنحاء. أريد النيل. أريد النيل. لكن

المشي كالكلام لابد أن يكون ناضجا ليصبح ذا معني وقابلا للسمع. للمشي معني؟ كدتُ أضحك من جديد، ولمْ. كنت افكر تحت ذرر الغمام المتناثر في فضاء الليل القاهري: أما أن تذهب بعيدا. ابعد مما أنت الآن، أو أن تظل واقفا هنا إلي الأبد.

كان الليل المتخافت النور، ليل الظلمة المبللة بالماء. يحثني علي السير، علي أن أعود من حيث أتيت، ولم أكن أسير، كنت أتشبث بحواف الجسر مقاوما كل شيء. كنت أقاوم العجز والنكوص وأنا أذرع جسر «الخديوي إسماعيل» ذاهبا آيبا: هي التي لم تجيء، وأنا الذي جاء ولم يحضر. لابد أنها تعرف كل شيء عمن تخونه ولذا لم تجيء هذه الليلة أيضا. ما همني أن يموت النور في قلب الماء المتواطيء.إذن/ أن يموت كالعشب الذي جفَ صيفا هناك. كنت لا أريد أن ابتذل اللحظة، ولا أن أهمل المكان، وكان السير وحده قادرا علي تبجيلهما، ولم أكن أسير، لمَ حرنتُ، فجأة، كشهاري الجزيرة ، ذات الأعراف الواقفة في الريح، عندما تفضل أن تموت ضربا علي أن تمشي خطوة واحدة. خطوة لا تريدها. ولمَ خطوتها بعد لأي؟ من «جسر الخديوي إسماعيل» أبدأ الليل من جديد، أبدؤه للمرة العاشرة، علي حوافه الرصينة أقف ورذاذ الماء يغشيني. أقف

ناظرا إلي البعيد، إلي حيث عتمة الليلة الأخيرة تتلألأ بالأنوار المتكاثرة علي الضفتين. كنت ابحث في العتمة اللماعة، تلك، عن قبرة طارت من يدي. قبرة رافقتني من «السنجق إلي «عامودا» وعلي قمة أحد التلال البعيدة حطتّ، كنت بعيدا عنها وقريبا منها ولم تكن تراني. قبرتي الحمراء النيلية ذات الأهداب المكومة حول عينيها البارعتين كينابيع «الجزيزة» المنبجسة من القاع.

كنت أريدها ولم تكن تريد. قلت أجيء بالتل الي علها تجيء. وبالفعل جئت به وظلت القبرة معلقة في الريح. تنظرني ولا أراها . واراها وهي بعيدة عني، أي خير في مكان لا يجمع الأحبة واللاعبين؟ وكيف يتسني لنا أن نموت قبل أن نحيا كثيرا، كثيرا في كثير؟

متعمدا، كنت أطارد الليل في الليلة الأخيرة، تلك. أريدهم كلهم بلا استثناء . اريدهم علي ضفاف النيل المكتوم في القاع تحتي. ولكن لمَ لا يجيئون؟ ماذا يريدون مني هذه الليلة، أيضاً؟ أيريدونني أن أبكي؟ بلي، هأنذا أبكي ضاحكا في قلب العتمة المتوجة بالنور، نور «النيل» المتدفق قربي بلا مبالاة.

قبل سنوات ، أيضا مشيت «القاهرة، كلها ، وحدي. كان الفجر يتلمس طريقه للوصول إلي، وكنت قد وصلت للتو «عماد

الدين» في ذلك الشارع الجليل، حيث تتقابل القصور القديمة مثل فيلة جريحة ثوتّ إلي الأبد علي القاع، وقفت اتأمل الفجر مأخودا : فجر القاهرة التي لا مثيل لها . فيه، رأيت اشجارا وغمامات. أكواما من الإنس والجن. أبخرة تلوث الليل يأنينها المكتوم. وأنفاس بشر لم يكن يغلي وإنما يفور. في ذلك الشارع المهيب صعدت طابقا وطابقين. ولجت قطرا عتيدا صار «لوكاندة» بلا ماء. انحاؤه متآكلة ومقشورة مثل أجرية الماء الناشفة في «بادية الشام: عبثا تحاول ماءها التي نفذ. تحسُ جلدك الصغير عليها فلا نحسُ إلا بالظمأ والجوع، أي شيء يمكن أن يعيدني إليها، إلي تلك اللحظات القاتمة سوي إحساس متفجر علي ضفة «النيل» ليلا؟ وكيف لي الا أعود، وأنا اقف علي حافة الجسر وحيدا، ومنتظرا بلا روح؟ فلتذهب قبرتي إلي الجحيم، إلي جحيم «الجزيرة» المملوء بالرعود. الآن أمشي.

أخيرا . أصل «قصر النيل» سريعا، أعبر المقاعد والانسكابات. علي حافة النهر أقف، أقف متطلعا في الفضاء الملوث بالماء. وفورا، يحتثي الرجل الصغير داعيا : ألا تريد أن تقعد؟ لا ، أريد أن أري. «يمكنك أن تري قاعدا، ايضا . يكرر لا، أريد أن أري واقفا، أردد . اردد نزفا وأنا أتهيأ للنزول، قاذفا

بنفسي في أبهة الماء، لاحقا بقبرتي التي حطت، فجأة، قدامي . ولكن أني له أن يري ما أراه، أن يري ما لم يكن ينتظره، ما لم يكن قد رآه، أبدا، من قبل؟

أهمل «الجسر»، فجأة، وأعود مسرعا إلي «الحسين، أبحث عن «ذبابة. ابحث الليل ، كله، عنها، وما يهمني إن ينتهي الليل وهي الوحيدة التي يمكن لها أن تقودني إلي هناك: إلي أرض «الجزيرة» المملوءة بالشوك والعاقول؟

«ذبابة» الصغيرة ذات الاسنان المتراكبة مثل أحجار الجبال المتساقطة من عل. «ذبابة» التي شقت الناس مارقة بينهم كالمخرز لنتسلط علي: عاوز حاجة»؟ وأتعجب من الشيطانة التي ترمقني بعينين ناريتين، وهي لا تملك إلا مخاطها السائل علي الأنفين: عاوز حاجة؟ أردد بغباء، وتبتسم وهي تهز لي خصرها الطفولي البائس: «أبوه يا خويا». وأتطلع إلي الشفة المشقوقة قليلا، وإلي العيون المليئة بالحياة، وقبل أن أقول شيئا تعرض لي ما في حوزتها «ذبابة». تعرض مزهوة غرضها الوحيد: منديلا وسخا من الورق لا يثير في النفس إلا الاشمئزاز. لكنه اشمئزاز تعاطف عميق. خليط من القرف والإعجاب. قرف من العالم وإعجاب بها. بالآخر التي تجرأ

علىَ اقتحام الخلوة البليدة التي تكبل الروح. أي شعور اقوي من هذا؟ من تعاطف منّ لا يملك شيئًا سوى أستجابته الودود لمن يملك كل شيء: نقاء نفسه وحيويته التي بلا حدود.

«ذبابة» لم تتركني بعد ذلك، ابدا، صارت تروح وتجيء. تختفي فجأة لتظهر فجأة ايضا. تعبس لهم وتبتسم لي. تفتعل الحركات الغريبة لاصحك. ولأضحك من جديد كانت تهزأ بمن يمرون وبمن لا يمرون. كنت أضحك؟ كنت أبكي حولها صمتا، ولكن لمّ لمَ تكن تراني أبكي، ذبابة؟

كانت تروي لي أخبارها وهي تدير ظهرها الناحل للمرأة الجسيمة، ذات الشعر الفاحم المنطلقِ علي اكتافها العظمي، المرأة التي تجالسِ «الخرتيت المنتصب أمامها كالطرد. أمرأة صموت مثل غيم «الجزيرة» الملبد باكالول، ورجل جهمةَ يمص بشبق نار جيلته المزينة بالنقوش، «ذبابة» تحكي، وأنا أسمع صامتا، والناس لا تتوقف عن المرور، والليل لا ينتهي، أي ليل كان ذلك الليل الفائت في «الحسين؟ كيف لا أعود هذه الليلة أيضًا إلي هناك؟ كيف لا أبحث عن «ذبابة» وقد استولي الحزن «كله» فجأة عليّ؟

في الساحة المهيبة رأيت الرجل الضليع يشفط الريح شفطا، يغرقه براحتيه ليرده إلي نفسه ولا يروي. ماذا كان يشرب ذلك الرجل الظمئ في ليل القاهرة الأغبر؟ وكيف لي أن ألج أسراره وهو يدفنها عميقا في نفسه بحركاته الجذلي تلك؟ لا، لم يكن ينظر إلي أحد، حتي ولا إلي. لم يكن يملك ما يملكه البشر من عيون، من عيون بليدة، جلده هو الذي كان يري، يري كل شيء يراه حتي قبل أن يلج فضاءه المسور بالغبار.

وتلك النسوة الملفعات الجاثمات ارضا ماذا كن ينتظرن في ليل الساحة الجليل؟ ماذا ينتظرن غير الحفيف، غير حفيف اقدام البشر التي لا تكف عن الانزلاق حولهن، ولكن لمَ تراني آقف مذهولاً بينهن وأنا ابحث عن أحد لأراه؟ عمن كنت ابحث، في تلك العتمة البلقاء، إنِ لمّ يكن عن نفسي التي أضعتها منذ أن غادرت «دمشق؟

بتصميم أعبر الممر تحتهن، إعبره من «الحسين» إلي «الأزهر» ومن «الأزهر» أعبره عائدًا إلي/ الحسين. أعبره وأنا لا أري شيئا. لا، لم أعد أريد أن أري لئلا أنسي ما رأيت، أعبر المكانين معا، دون أن اترك المكان، أمتار محدودة تفصل أحدهما عن الآخر، وبينهما تساطر وتواريخ. وجوه الخلق المحيطة بهما وهيئاتهم تدلك علي خطل الهمزة والحساب.

ولكن، لمَ تراكَ لا تهدأ، لم لا تكتفي بمن تري وبما رأيت؟ من أنت حتي تمسك «القاهرة» بيدك؟ منْ انت حتي تتلمس انداءها العظمي في «الأهرامات»، وتتحسس بطونها الضوامر في مدائن الموتي؟ وتلك الأكمات الصفْر المحيطة بها لمن تمنح فضاءها إن لم يكن للريح؟ لريح الرمل التي لا تسكن حتي تهب من جديد، تماما، مثل إحساسك الملتهب، هذا المساء.

لم تراك تأمل شيئا وتفعل شيئًا آخر إذن، ألا تكفيك المشقة التي عانيتها في الشام؟ ألا تريد أن تبتعد قليلا عن نفسك، أن تدعها تذوب، تذوب في هذه الكتل الحافلة من البشر؟ الكتل المملوءة تحفزًا واشياء ألا تري هذه الهياكل المتسارعة في الفراغ، وهذه الأفواه الجائعة للتعبير؟ أي شيء أكثر رعبا من كائنات لم تعد تحب أحدا حتي ولا نفسها؟ ألا تريد أن تفهم؟ أنظر. انظر الناس أين وأنت أين/ وأنظر أسفل العين: بشر وغبار، تلك هي «القاهرة» التي ابتلعتك كما يبتلع البحر زائرًا غرق فيه. ألا يكفي هذا، كله، لكي تقضي الليل ماشيا، ليل الليلة الأخيرة هذه. ليلة القاهرة التي ستتركها بعد قليل.

بعد قليل.

# مدينة القارتين

(كل المدن مـدن أهليـة، والناس كلهم أخوة، لا، لن أعـود إلى مكان هجَرْتُه حيًا، لأموت فيه)

(١)

حـضـارات عشـتـهـا قـبل أن أراها. وتواريخ ملكتنى قـبل أن املك نـفـسي هـأنذا، فى آن واحـد، فى مكانين هـأنـذا، أخـيـرًا، على «البوغاز» فى «البوسفور»!

(٢)

المدن أجسـاد لهـا روائح واختمـارات شمـائل وثآليل. أعـراق وثمالات ندخلها متحسسين أركانها وكأننـا فى قبة الكون نبحث فيها عن المدينة التى أضعناها، ذات يوم، في زمـان بعيد فنحن

نكبر في «مدينتنا»، ونصغر فيها، وتبقى المدن الأخرى مرائى نقاربها كما نقارب امرأة عشقناها، لا يضيرنا التمنع منها، وإنما الابتذال.

نأمل الوصل منها فتعطينا حالها بلطف لطف نحسّه يدغدغ أقدامنا ونحن فيها نسير لكن لطف «اسطمبول» لم يكن في الحسبان لطف هذه الجُدُر الشامخة الحاضنة للعُصور.

(٣)

تسحرنا المدن لا بأبهتها وإنما بالتاريخ الذى يختبيء فيها، ولذا تجدنا نمشيها ونحن نبحث فيها عن الأسرار عن أسرار الحياة التي اندمجت بحيطانها عن الاندثارات فى أبهائها عن التاريخ الذي يتجسّد أزوالاً في كل زاوية منها وعن الحكايا التى ملأت أسماعنا ونحن عنها بعيدون هذا ما ترويه لى هذه الهالات، هالات هذه المدينة الحائرة بين الزمن والماء ولكن مَنْ علمنا الحقد على الآخرين غير «دروس التاريخ» الزائفة، تلك التي ملأت قلوبنا بالمقت : مقت الآخرين «لحماية» أنفسنا منهم، ونحن معهم في كوكب واحد!

(٤)

عظمة العالم تكمن في اختلافه واختلافه يكمن في تبَنّيه، بلا خوف، لخصائصه، وأكثر من ذلك، لحقائقه المنبثقة من كل

بؤرة منه فما جدوى أن يعاني الكائن من أجل أن يرى بعيون غيره، وألاّ يسمع بأذنيه؟

الكائن قِيَم وتعاليم، وهو، لذلك، سريع العطب وهنا يكمن سَر اشتعال عواطفه، وانهياره الآني، أيضًا خلاصه الوحيد يكمن فى تحرير حواسه من التدجين، وتخليص عقله من سيطرة «المطلق» عليه وهو ما سيعنى حب الذات المبنىّ على احترام «الغريب» الغريب الذى ليس هو غريبًا تمامًا، في الحقيقة وهل يمكن تحقيق ذلك؟ بلى!! فإذا كانت أخطاء الماضى غير قابلة للإصلاح فلا معنى للحياة، أصلاً ولربما كان المعنى الوحيد لها يكمن في هذه الإمكانية الأساسية، فقط.

(٥)

من آخر هضبة من هضاب «آسيا» انحدر إلى «البوغاز» انحدر ماشيًا على قدمىَّ الكيلو مترات الآسيوية الأخيرة قبل أن أصل إلى «أوربا» على الضفة الشرقية للبوغاز أتوقف أتوقف ناظرًا إلى الفضاء فضاء آجرى أحمر ومضيء خلفي تركت، فى نهاية آسيا، أو فى بدايتها، لا فرق، آلاف الأبنية المتهافتة المتكاتفة التي ذكرتنى «بالغورية» و «الحسين» هنا كثير من القاهرة، ولا شيء من «دمشق» وكنت أريد العكس! ولِمَ

تراني كنت أريد العكس؟ وأي عكس يمكنه أن يشرح الأمكنة ولكن، أي جدوى من إطالة الوقوف في مكان هو نفسه يمشي راكضًا نحو الماء.

(٦)

كاتبًا هذا، هكذا، أحسني أزيّف مشاعري ونواياي أحسني ابتذل نفسى كثيرًا، وأهين الشمس الساطعة التي تنير الكون لماذا لا أمشى ساكتًا، باحثًا فى خفايا الضوء عن الأفانين؟ لماذا لا التفت إلى اليسار، قليلاً لأرى «أياصوفيا» الخالدة تحتل «الهضبة الأخرى» المسيطرة على البوغاز أولى هضبات «أوربا» المغروسة في القاع.

(٧)

هذه المدينة الحائرة بين الزمن والماء، المرمية تحت شمس آسيا، والتى تدعى أنها أوربية، كَمْ داستّها أقدام وخيول؟ وكم عبرتها مراكب وانحناءات؟ وغَشَتّها مناهج وحضارات؟ ولَكَمْ تملاّها بشر عابرون، لم يبقَ منهم إلاّ خيالاتهم الممزوجة بالتراب.

هذه المدينة... حقيقتها الأساسية تنبع من هذه المآذن التي لا تحصى مآذن تركب، مثل فرسان العصور الأولى، الهضاب

المتسلطة على البحرين: الأبيض، والأسود وإن شئت بحر مرمرة، وبحر الشام انظر!

وأحسني، فجأة، أسعَدَ كائن على الأرض، لأنني كنت، ببساطة، أسبح في التاريخ تاريخ رضعته نائمًا بين أقدامهما تاريخ كنت أُخمِّنه ولا أراه؛ والبوم أمشيه على قدميَّ.

(٨)

بلى! «حمد» كان يحكي «لزهرة» عن هذا، وكنت أسمع مختفيًا تحت اللحاف تحت لحاف الرقع والقشور كان يحكي وهو يتمرّخ كالعربيد، كالعربيد الذى يريد أن يفترس سمّانة ولكي يفترسها، أكيدا، يفسح لها مكانًا لكي تحطّ بأمان عليه ولم يكن ثمة من مكان غير صوته الممتلئ بأحداث التاريخ وبأحاديثه!! عمَّ كان يحكى ذلك الـ «حمد» العجيب! كان يحكي عن حوادث، وعن مدن مُدُن لم يدخلها، لَمْ يعبرها، ولَمْ يَرَها، حتى، من بعيد، ومع ذلك، كان يعرفها وكأنه صنعها بيديه!! والآن، وأنا أمشيها مستثارًا، ماذا بقى لى غير أن اعُدَّ المآذن والرقبات؟ غير أن أبحث فى أشلائها عنهما؟ عن «حَمَدى» «زهراي» ألا يريدان أن يجيئا، هنيهة، إلى هنا، علّنا نلتقى، للمرة الأخيرة، على القارتين ووجدتنى أبكى أبكى، واقفًا على الضفة الآسيوية للبوسفور، مثل طفل فَقَدَ، توًا، أمه وأباه!!

(٩)

نحن لا نبكي على الكائن، إذن، وإنما على «التاريخ» على تاريخه المصنوع من فعل ومن كلمات من قبل كنت اعتقد أنني «قوى»! وهأنذا اكتشف أننى «ضعيف» ضعيف لأنني اعتقدت، يومًا، بما ليس بي، وما ليس لى وهل يعتقد بما لا يملكونه سوى الضعفاء، أولئك الذين زين القمع لهم صفات ليست فيهم، وجعلتهم الحاجة إلى «الاعتراف» يركضون يركضون وراء سراب اعتراف سخيف بهم!! اعتراف يبدو أشَدّ سخفًا كلما تحقّق أكثر.

(١٠)

أقطع البوسفور ماشيًا بهدوء. بهدوء وبطء وفي منتصف جسر «أتاتورك» أتوقف. أتوقف بين القارتين، تمامًا لكأنني لم أعد أريد أن أصل إلى حيث أنا الآن! أتوقف مستديرًا باحثًا عن المآذن والقباب عن تلك الرُسومات المتعامدة مع الضوء، الواصلة الأرض بالسماء.

وأحس الجسر يهتزّ تحتى. يهتزّ من أثقال الحُمول التى لا تتوقف عن العبور وحدهم، صيادوا الأسماك البؤساء، ذوو الوجوه المحروقة من الضوء، والسّحَن المملوءة بالسغب والغيظ،

بجلودهم المدبوغة بالزيت والرماد، يقفون، مثلى، بسكون، شاتمين الماء التى تحمى أسماكها الصغيرة منهم لكأنهم لا ينتظرون من النهار إلا البقية التى لا تأتى!

مثلهم، أظل واقفًا فوق الماء يسارًا، تتجلّى في وجهي مآذن «أياصوفيا»، ويمينًا أكوام البنايات العتيقة في «تكّسبهم» البنايات الهشة، الآجرية اللون، الهاجمة على الضفتين، مثل كائنات عطشي.

مثلهم، أظل واقفًا ساعات، غارقًا في صمت الضوء المتسلّط على الكون، وكأنه يأمر العالم، كله، بالسكون!! سكون عبثي وبلا جدوى، ومع ذلك، أنفّذه بامتثال.

(١١)

واقفًا في سدرة الضوء، أصير أُتمتم : أحب قوة الضعيف وجمال القبيح، وأكره رأفة القاسى وتواضع المتكبّر. أحب عناد المخذول وتصميم المنهزِم، وأكره حِلْم القوى وتسامح المنتصر أحب تلجلج الجائع وارتجاف البرود، وأكره تعفّف الشَبِع وطمأنينة المقتدر أحب... وأكره... وما أنا غير هذين العاطفتين اللتين بلا حدود؟

## (١٢)

هنا كل شيء يبدو «مهترئًا وأزليًا» (ولا معنى لحضارة بلا قَدَم)! لكأن الشمس تكفَّلَتْ باهْرائه وتدميره، وهو مالم يعَد يثير دهشتي، ولا حنقى لماذا ألوم الضوء على فعله الأساسى فى الحياة : فعل تفتيت القشور للوصول إلى جوهر الأشياء.

هنا، عرفت، لأول مرة، أنه يمكن لي أن اعثر فى ذاتي على منجم من ذهب، أو على بئر من رماد!! وعَلَىَّ، وحدى، أن أُقرر الاختيار.

## (١٣)

في صحن «جامع سينان» (لِمَ اسمه الصحن؟) أجلس، متعبًا من السير أجلس أمامِ إحدى حنفيات الوضوء أغسل، بلا تردد، وجهى ويدىَّ من لهب الشمس أُزيل عنهما وهجها الذي تراكَمَ، منذ أول النهار ماء دافق بلا منّة، وظل منعش وآمين ذاهبون وآيبون، يبللون أنحاءهم بلا حساسية أو خوف وكثيرون منهم يغسلون أقدامهم المتعبة بمتعة لا تعادلها إلاّ متعة التوسيخ لكأن غَسّل القدمين هو، وحده، الذى يُريح! ويخطر لي أن حضارة الإسلام هي، في الحقيقة، حضارة الماء! حضارة الماء الذي كانت تفتقر إليه لَمِ لا أفعل ما يفعله الآخرون، إذن؟ ولِمَ علىَّ

أن أفعله؟ ووجدَتنى أحبس ضحكتى الوحيدة، وأنا أمَدُّ قدميَّ إلى الماء : فليس لعضو ميزة على عضو آخر فى فضاء يفور من الحر!

## (١٤)

في أزقّة ضيقة ومشجرة، وبين أبنية صرّارة من القرون الوسطى، وفناءات مملوءة بالورد والريح، يتربّع الجامع «السليمانى» المهيب جامع هائل ذو منارات أربع، يعلو الهضبة المطلّة على البوسفور، من جهة أوربا.

في داخله أحس بالبرودة والإنعاش أحس بجلالة التاريخ ونقائه لكأن ما يصنعه البشر، منذ أن ينجز، يستقل عن أهوائهم ونواياهم يحيا بذاته ولذاته سبحان مَنْ خلق!!

في هضبته أقف وأنظر!! جوامع وأساطير تكيات لا تحصى تحيط بالبحرين، وفضاء من الماء الدائر كالغرّاف كيف لي أن أحيط بشيء من هذا وأنا لازلت أحبو؟ أمام ضخامة المشهد، وتعدد وجوهه، وأساليب خفائه، تحس نفسك طفلاً!! تدرك، أخيرًا، أنك امتلأت حماقة وسخافة تفهم أن عمى البصيرة الذي حقنوك به لم يدلك، أبدًا، على الطريق. على طريق

الادراك الصحيح وأنه لم يقدّكَ إلاّ إلى منزلق وجودك المتهافت لماذا لا تقول الحقيقة أيها التعيس!

## (١٥)

أشرقت الشمس (منذ متى؟)، وها هي ذي تغرب الآن! وما هَمَّ أن تشرق أو تغرب، وأنت فى حضرة البردة والتاريخ؟ جسور البوسفور الطويلة المدى هى التى تربط عينيك بالنوء وهي التي ترفعك، مع غمامها المتطاير، بهدوء هى التى تحثّك لكى تتخلّص، أخيرًا، من أوقاتكَ المحددة ذات البلادة التى لا تحتمل انظُرْ! كيف يخرج النور من الماء! كيف تُحيكُ السفن حولها خيوطه البيض مثل غزْل «بينيلوب» الجميل.

أدع الشمس تغرب، ولا أترك «السليمانى» من أعاليه أطلّ على كل شىء : على ما أرى، وعلى ما لا أراه! أطلُّ على ذاتي المختبئة فى الحضيض زرقة الماء تغريها بالسفر وبالخروج، ومع ذلك، لا أجد سوى المرارة مرارة الخضوع لمتطلّبات وهمية أبعدتنى عن الحياة!! مرارة الامتثال لمقتضيات بائسة من أجل الحفاظ على ما جوهره التبدد والاندثار أى غباء يعمى بصيرة الكائن ليقبل بتسليم نفسه لجَلاّديه؟ لمدَمِّري حريته وحياته! لِمَ

لَمْ ينبتْ لي جناحان؟ ولِمَ لَمْ أستطع الطيران وأنا فى المَهد؟ اللعنة!

## (١٦)

بعض الناس يولد ليموت، وبعضهم يموت دون أن يولد، أصلاً! وفى الحالتين ليست الولادة سوى التخلّص الجذرى ممّا تعلمناه. مما تعلمناه رؤية وأفكارًا، بلا استثناء فليس فى قواعد الحياة قاعدة جميلة (وإن كان الكثير منها يلائم الكثيرين من الناس)! هذا ما أحسست به وأنا أجوب «مدينة القارتين» أجوبها، وأنا أُتمتِمُ : كيف يحق لكائن لَمْ يرَ العالم، كله، أن يحكم عليه؟ عَلى نفسه وكيف يدّعي المتهافتون العِرْفَةِ وهم قاعدون؟ قاعدون فكرًا وسلوكًا ومسافات ولمَ تفرض الدول السفر على «مواطنيها» بالقوة، بدلاً من أن تحجزهم في أماكنهم كالأغنام؟

## (١٧)

يمكن أن تضيّع نفسك، بالصدفة، في أي مكان، وليس عليك أن تعثر عليها أبحثْ عن غيرها، وعلى الفور! أبحث لابد أن تجد الشبيه فللشبيه مزايا وآفات هو ليس صورة لك، فحسب، إنه قواعد وسلوك إنه أنت. أنت الذى تمخض الكون عنه، ذات

يوم، فى بقعة ما من العالم هذا ما كنت أفكر فيه وأنا أجوب «البازار الكبير» الذى يحتل قلب «الآستانة» أجوبه متمليًّا وجوه الناس حولى العُلوج يتشابهون فى كل مكان (كنت أردد) والمستعفون فى الأرض، أيضًا! لكن علوج «البازار الكبير» يتشابهون أكثر مما يتشابه البشر الآخرون! يقفون بصلافة أمام دكاكينهم الملأى بالقسمات، بالآيات المزخرفة، وبالمعاضيد وجوههم دهنية، أثوابهم نظيفة، ولا يتكلمون إلاّ بلغة الدولار! وهؤلاء الحَمَلَة النَّقَلَة لِمَ يطأطئون رؤوسهم وهم يمشون بصمت، وكأنهم يخشونَ من مجرد النظر إلى الفتنة والأباريق؟

## (١٨)

أيّ فناء يستوعب هذه الأبدية؟ أردد في صحن الجامع الكبير وأنا أرى جموع البشر تتهاوى بين أجنحته الحجرية الصامتة خلق وتعابير ضوء وصمت مشى متهاد كمشي الحجل بين أفناء الجزيرة الغابرة، حتى لتحس بأن روح العالم أنبثقت هاهنا أول مرة روح لم تخلِّفْ فى الفضاء سوى رفيف أجنحتها وهي تطير! وأصير أُردد لائمًا (وهلْ يلوم سوى العَلوم؟) : علام تتمزّق رهبة وأنت بين هذه الهايكل الحصيفة؟ تنظر هنا، وفى عينيك هناك وتأكل من هذه، وفي نفسك تلك تشرب رغدًا مما

بين يديك، وروحك ظمــأى إلى مــا أردت أن تُسقى منه، ذات يوم! أى شـغف يغـرق الكائن في بحـر شـهـواته التي لا ترتوى سوى الحرمان؟ سوى حرمان الطفولة الذى لا ينمحى!

## (١٩)

أخيرًا، «أيا صوفيا»! أيا صوفيا الحمراء الباذخة، ذات الأحجار الياقوتيه المِلْس، تتربع بأبهة على هضبة الجناح الأوربى من البوسفور تعلوها مئذنتان من أحجار بيض غير أحجارها، وهما، مع ذلك، شامختان.

خشوع قاهر وحيرة! ماذا أفعل غير أن استقريء الحجر والآجر؟ غير أن أزيح المُضاف مؤقتًا لأرى جسد الكنيسة الخاشع كما كان!

في الداخل لا زالت الكنيسة ـ الجامع حيّة، تزيّنها رسومها الأولى بافتتان فى جنباتها لوحات الموزاييك التى تمثل العذراء وعيسى بن مريم لم تزل على هيئتها الأولى، ولم تزل تعابير الرهبة تتموّج فوق وجوه القسس والرهبان.

في القبة المركزية منها يتجلّى : الله، محمد، متلازمين وفى الجهة الأخرى : أبو بكر وعمر، عثمان وعلى وفي ركن أبعَد: الحسن والحسين وفى سقف القبة الملاصق للسماء : آيات قرآنية محاطة بتدوير.

هنا تدرك، ببساطة، أن الخلود ليس شيئًا آخر سوى التراث وأن تراث الإنسانية، مهما كان مصدره، واحد.

(٢٠)

في «مدرسة على باشا»، التى تحولَّتْ إلى مقهى شرقى جميل، اقعد محتميًا من الشمس أهبط سلالم خشبية عتيقة تقودنى إلى ساحة «المدرسة التى كانت» ساحة تلطأ تحت الأرض لتحتمى، هى الأخرى، من اللواحظ والنوء على حشايا مريحة، ذات ألوان هادئة وسميكة : أجرى، أخضر لَوّاف، أزرق نيلى، توتىّ، يجلس الناس متمازجين بلطف شرق وغرب هنا يلتقيان شرق، وغرب، وأساطير! يابانيون يجلسون القرفصاء باحترام باذخ للمكان. للمكان الذى لا يتوقفون عن تصويره، وتزويره بمَ يفكر هؤلاء البشر القادمون من مشرق الشمس؟ وكيف لا يسلبهم هذا السكون العميق النابع من أرض محشوّة بالتاريخ؟

هأنذا أراهم أكثر هدوءا منى، وأسعَد! أحسهم يتمتّعون، فعلاً، بما يرون وبما يلامسون. اللعنة! لكأن متعتى وهميّة أي تاريخ خلفته، ورائى، فى «دمشق» دون أن أدركه، أو أستوعب منه شيئًا؟ ولِمَ تركونا كالأبقار نسرح فى المكان، ولا نمرح فيه،

دون أن يشـرح لنا أحـد أمـرًا؟ ألا تكمن بذرة «تفـريغ الكائن» وعـزله عن تاريخه فى هـذا الاهمـال؟ في هذا الإهمـال المتعمّد بلى! الآن أعـرف فما أحـيا الغـرب سوى الصـراحة، وما قـتل الشـرق العـربي سـوى الأكـاذيب كيف لا أشـرب الشـاى بسـرعة وامتعاض، وامشى! أمشى واترك اليابانى الصـامت منطفئًا في الزاوية، مثل سيل عَرِم أحتضنه، أخيرًا، بحر لا حدود!

(٢١)

«إسّكودارّ»، آخـر الهـضـاب الآسـيوية قـبل البـحـر، أمشى، متـحـفّزًا، أمتـارها الأخيـرة، من جـديد أحس بطعم التـراب الآسيوى، وبنفحة الـريح القـادم من أعماق الشـرق أتلفّتُ بحنين، بحنين ممتزج بالرغبة في الموت، إلى شـاطىء آسيا المنطفىء عند الماء أرى جَولان الخيول وصولانها وهى تحمحم مقهورة.

من أى فَجٍّ نبع هذا العـالم؟ وإلى أي مـدى يمكنـه أن يروح؟ ولكن، مَنْ، مَنّ غـــيــر هـذا الماء الصـِــامت، يمكنـه أن يقـــول الحقيقة؟ ولِمَ ترانى أبحث عنها وأنا غارق في الوهم؟

(٢٢)

أمــواج المضـيق تـلاعب «اسـكودار» بمودة (لكأن الماء تدرك هشـاشة الأرض التى تغوص فيهـا)! وبنعومـة، يمتَدُّ لسـانهـا،

لسان القرن الذهبى (غولدنْ هورْنٌ) ليفرج الضفتين لكأن الماء أحست بتأنيب الضمير فأصبحت الطف! ألْطَف وهي تقسم أوائل الأرض إلى هضبتين: هضبة «تكسيم» الباردة، وهضبة «أياصوفيا» الساخنة.

الهضاب الآسيوية تعلو البحر بما يكفى لترى منها، ومن بعيد، جُسوم الأرض الأوربية وهي تُخرج عارية من الماء واقفًا، فى نزوة الضوء المتكَسِّر فوق صفحة البوسفور، كنت أردد : أى عقل يمكنه أن يختلط بهذا، كله، وينجو من الاضطراب؟ كيف يمكننا أن نتّقي رعب التاريخ، ونحمى انفسنا منه، إنّ لَمْ نَقُمْ بنبشه، وتحريره من الزيف والادعاء؟

## (٢٣)

المكان الوحيد الذي سأعود إليه مرتين، هو «البازار الكبير» هو «سوق الحميدية» الدمشقى، وسأجده، هذه المرة، موصد الأبواب ماذا افعل غير أن أتعلل بالمشى البطىء في حواشيه التى ستوصد أبوابها، هى الأخرى، سريعًا.

أدع السوق ينغلق على نفسه، وأروح إلى التربة المجاورة : «تربة بيازيد» العظيمة هجر الناس السوق وتجمعوا حولها وبدلاً من ذهب «البازار الكبير» وفضته وسجاده الثمين، هنا،

يعرضون الأقمشة الرخيصة، والحلى المزيَّف، والمطاط وعوضًا عن الصمت الفاخر في ذلك السوق الذهبى تصدح، في فضاء التربة، الأغانى العاطفية البائسة التي ذكرتنى بنواح «صباح» عندما كانت صبية.

شيء واحد يعوِّض هذا التغيّر الجذري، ويعطيه معناه ومتعته «أيضًا) : اللطف! اللطف المنبعث من وجوه البشر البؤساء لكأن البؤس نعمة (نعمة الاتصال المجانى مع الآخر، والاحتكاك به بلا «فائدة أو سعر»، والتملُّك المفرط نقمة (نقمة الغرور والنفور) هذا ما سأدركه، ذلك المساء! فلأول مرة، هنا، أستطيع أن ألمس سلعة، أو أن اختبرها، دون أن أدفع ثمنها سَمّعًا، وبالدولار لماذا لا أتمتّع، إذن، ماشيًا بين مَنّ أحب؟ لماذا! وهذه روائح الشواء الشهىّ بدأت تلوِّن بدخانها البهى لوائح المساء لم أكن جائعًا، ومع ذلك، صرت أريد أن آكل أن آكل ما أشمّه قبل أن أراه.

## (٢٤)

في مقاهٍ كثيرة اجلس. اجلس على كراسى القصب القزمة، وركبتاى مطويتان أتذكر، بمجرد الجلسة هذه، مقاهي «الخابور» المصنوعة من الزل، وجراديقه المحاطة بالقصب

والحَرْمَل في ساحاتها المكشوفة للخلاء، كنا نجلس متسامرين تحت قمر «الجزيرة» الذى لا يغيب حولنا ينتشر الناس بلا مزية أو عداء يتمددون بعفوية بين أخاديد القطن التي أينعت أغصانه، وبياضه الناصع ينعكس بمحبة على وجه القمر الملوّث بالغيم.

قطن، وماء، وشاي (كما الآن) وأحاديث شتّى مملوءة بالرغبة واللَمَع أحاديث لا هَمَّ لها سوى التطلّع إلى «هناك» إلى «حيث هو العالم» بعيدًا عالم كنا نحسبه لغبائنا سعيدًا.

## (٢٥)

في مقهى «القارعة» الذى جلستُ فيه صُبّح ذلك اليوم، أمدّف رِجْلَيَّ، بلا حرج، وأنا انظر حولى متعجبًا! نساء سمان يتربعن حول نار «مزيفة»، يخبزن على الصاج خبزًا رقيقًا لسوّاح بلداء! وفجأة، أحفز واقفًا أدير ظهرى لخبازات الفولكلور التعيس دون أن أمس الشاي الذى قدمه لي صبى المقهى ذو الطربوش المزيّن بالخيوط أحس بقلبى يمتلىء بالغيظ : لكأنهم يبيعون عواطفي وأحاسيسي يبيعون ذكرياتي القديمة التي إنّ خَلَوتُ منها خَلّتُ من نفسى يبيعونها على مرأى مني ومسمع!

وأحسنّي أريد أن أخرج من ذكرياتي قبل أن أخرج من المكان أريد أن أُوقف ذلك التذمّر الذى بدأ يتسلّط، من جديد، علَيَّ. صرتُ أتذكّر خبز أمى فجرًا قبل أن تبدأ الظعون بالرحيل أتذكر وجهها الضامر، وعينيها الدامعتين من البرد والخوف والدخان أتذكرها وهى تغالب فجر الحَماد الصاقع قبل أن يُحَمِّل حَمَدُ الجمال إلى أى فجّ كنا سنرحل، ذلك اليوم؟ ومن أى ماء كنا سنشرب! أما الآن، فأنا أعرف من أية قارة جئت وإلى أية قارة سأروح! أي برهانٍ أكبر من هذا يؤكّد عبَثَ الوجود ومتعته؟!

## (٢٦)

في المساء الأخير، أجلس، فى «مادو» الذي يتربّع فوق كتف «فَنْديكْزادَهْ»، وهى أعلى هضبةَ فى القسم الأوربى من اسطمبول «مادو» الذي ذكَّرنى بـ «بَكْداش للمرطبات» في سوق «الحميدية» الدمشقى.

أجلس وحيدًا وعديدًا! لون لمساء المشع يغريني بالتبعثر والانتشار أشرّق وأغرّب أمَصِّر وأشَوِّم (أنا لم أرَ العراق، بعد) خطر لى في ذلك المساء الملوث بالشوق! وما يخطر لنا، لا يخطر عبثًا، كما صرت أعرف الآن لأي شأن تتاهبتي الظنون،

ذلك المساء، إذن؟ ولِمَ احسستُ بروحى تكاد أن تقفز خارجة من صدري لتطوف في الأنحاء؟ ولأى غرض كان لسانى يلهج ببيت «الحلّزة اليَشكرِى»، في مديح الرحيل:

آذنَتّنا ببيّنها أسماء / رب ثاوٍ يملُّ منه الثَواء!

كنت اعرف أنني سأسافر غداً لكن العودة إلى المكان الذي نقيم فيه ليس سفراً، وإنما امتثال : امتثال الحركة للسكون، والاكتشاف للاحتراف! ماذا يبقى لنا، في هذه الحال، غير الانتظار؟ غير انتظار الرحيل قبل أن يمُلّنا الخليل.

# كيف أصف الصحراء موريتانيا؟

أجمل الكلمات نكتبها على أوراق من غبار. وأي غبار يملأ الأرض نورًا سوى الرمل؟

لماذا تلوِّث الصحراء حَمارَها بالأبيض، وتلوِّنه بنُقَط خُضْر كشامة «نجد»؟

مَنْ يفهم الأرض غير أهلها؟

●●●

كانت الدنيا عصرًا عندما خرجنا لأول مرة من «دَشْرَة» نواكشوط كان ضباب الصحراء المليء رملاً يعطي الأفق لونًا فضيًّا غامضًا ولأول مرة، اكتشف غموض الفضّي وبَهاتَته.

بين «عرفات» و «سيزيم» يمتد الطريق الصحراوي حتى المحيط وفي أطراف «سيزيم» يمتلىء الفضاء ببيوت التنك

والرقيع بأغنام ورجال من خشب بقشور وبُقَع ملح رطب ببقايا كائنات تكاد أن تتعفّن قبل أن تموت قبل أن تموت واقفة فوق الرمل أسباخ الملح التاريخي القديم هي التي تملأ العين أولاً الملح الذي أعطى الصحراء حياتها وأساطيرها : ملح القواقع التي امتلأت بالكلام.

•••

أيها الرمل مَنْ رآك؟ أردّد على حافة «الصحراء موريتانيا»! الصحراء التي أصبحت، فجأة، بحرًا أشمُّ رائحة الماء المنهك وهو يتمدد مُتسايلاً فوق الرمل الشمس تنظره من وراء حجاب لكأنها أحاطتْ نفسها، قصدًا بغمامها الفضّي الذي استعارتْه، للتوّ، من الرمل!

مَنْ يقهر الشمس سواه؟ سوى حجاب الرمل الذي أغار على الكون بفعله تصغُر الشمس وتسحب تبدو مخذولة مثل بصلة يبسَتْ قشورها وتصير العين تُكابسها بلا غَمّض شمس صُفَيْراء، تكاد أنْ تموت، مثل امرأة خلصَتْ من ضعفها، للتوّ.

وكأنها اصفَرّتْ خجلاً، تغرب الشمس وحيدة في البعيد تغرب دون أنْ يكترثا بها : البحر والصحراء ولِمَ تراهما

يكترثان، وهما يعرفان أنها ستشرق عليهما غدًا عند الفجر، وما عليهما إلا الانتظار وسينتظرانها.

منّ هنا، ولابد، من أمواج البحر ومن عواصف الرمل المتكررة، وُلدَتْ «أسطورة» الانتظار الذى لا يُبْلى! أسطورة الانتظار الذي يتجدد كل يوم!

•••

إلى ضفاف المحيط يأخذني» يَحّفوظ» سائق الجيب الصحراوي الأدهم نترجّل بهدوء مثل «التبريزى» وتابعه «قفه» وأصير أتململ لكأن الروائح تنفذ بين جلدي والثياب روائح الزَنَخ العتيقة : زَنَخ الأسماك المجففة بالشمس والمدهونة بالرملَ أسماك غدَتْ مثل الجلود المُطَرّقِعَة، بعدما كانت تسبح كالشياطين.

في منتصف بيوت «الحَوّاتَة»، وفي بحر روائحهم، أقف مأخوذًا! مراكبهم الخشبية المهترئة مرمية على الأرض، بلا مبالاة ونساؤهم (أو ما يمكن أن يسمّى هكذا) تطبخ الماء على نار من «خشب البلاستيك»! عجبًا! لكأن الحياة تحتمل كل شيء : تحتمل حتى مالا يمكن احتماله.

ماذا أرى؟ كائنات من رمل ومن غبار! «عبء الوجود» يتجلّى في هيئاتهم المتّسمة بالسكون سكون وَهّم غدا، من شدّته،

مرئيًا! أمام أكواخهم الخشبية المطلية بالرمل، تحسّهم يتعلّقون. يتعلّقون بخيوط من الشَتَت والخوف: ماذا سنأكل غدًا؟

•••

مع غياب الشمس، تعود مراكب الحَوّاتين الضالّة إلى الشاطىء تعود متباطئة، مثل جمال انتهتْ من رَعْيها، للتَوّ مراكب سود تطفو على الماء مثل رقَع القشير تطفو مقتربة منا (من الرمل بالأحرى) لكأن الشمس التي أغربتْ أمرتْها بالعودة إليه، على الفور فى طَفْوها البطىء تساعدها أمواج البحر التي لا تكفّ عن التقرّب والمُلاحَسةَ لكأن عقدًا سريًا يربط الرمل بالبحر أية بلادة تدفع الكائن إلى التباهى على الكون، إذن؟ على كونه المجبول من من ماء وطين! بهذه السذاجة العميقة ملأت أمواج الحواتين البسطاء نفسى وهم يرمون بحميّة على الرمل أكوام أسماكهم التي لم تزل حية.

•••

كان منطقيًا (وليس للتاريخ منطق) أن يَعْبُر الإسلام (وهو الدين الصحراوى بامتياز) بَواديه الشاسعة إلى المحيط، وأن يتشَبّث أهل هذه الصحراء التى تحرقنى الآن، به وكان منطقيًا، أيضا (أكاد أخجل من ترديد هذه الكلمة البليدة، لكنها الوحيدة

التى تُعبِّر، فى هذه اللحظة، عن أحاسيسي) أن يَرُدَّه المحيط عن العبور إلى «العَالَم الآخر»! عالَم «ما بعد المحيط» الغارق في المجهول ولم تكن «بحر الظُّلُمات» إلاّ ذريعة للنجاة من غَرَق «محتمل» في الماء!

•••

صحارى وشُموس سَبَخ وكثبان ريح ورذاذ كائنات تتحرك باستمرار وبلا صوت رجال زُرْق وسود وحمى من خشب ومن أسانيد أكواخ من تراب يابس ومن حشيش أكواخ مرمية على الشاطىء، مملوءة ببشر تَكَوَّخ حتى ماع! بشر من زَبَد وقشور أية لغة تتكلمها الطبيعة هذا النهار؟ وكيف يسكن الريح هذا الخلاء؟ كيف أصف الصحراء موريتانيا؟ كيف أُلِمُّ ببحر الرمال السماوية؟

•••

الصحارى مدن. مدن عماراتها الكثبان، وشوارعها الودّيان ملكتها الشمس، وسيّدُها القمر رُقَباؤها النسور، وقادتها الأسود حكماؤها الثعالب، ونساؤها الغزلان تجوبها الريح بلا تمييز، ويصعقها الضوء بلا رحمة سكّانها شتى ومؤتلفون يجمعهم «حب البقاء» ، ويفرّقهم الجوع تكفيهم اللقمة،

ويسعدهم الشبع متساوون تحت وطأة الشمس، وعواصف الرمل لا يفرّق النوء بينهم، ولا يتواطأ مع أحد منهم لا يَقتُلون عبثًا، ولا يُقتَلون حتى الأشجار تتمَتّع فيها بحق الحياة لا فرق فيها بين حَيّ وآخر إلاّ في مقاومته للهلاك.

•••

هنا أكتشف أن «المطلق» ليس سوى أُكذوبة. أُكذوبة روَّجها الذين متَّعتْهم الحياة بما حرمتْ هؤلاء منه! شيء واحد سأقتنع به: إرادة الحياة فلكيّ يحيا الكائن عليه أن يتجاوز حتى طاقته على التَحمّل! فإذا كانت «إرادة المعرفة» ليستْ شيئًا أساسيًا في هذا الغبار المضيء، فإنّ إرادة الحياة، على العكس منها، هي المُحرّك الأساسي لكل شيء لكل هؤلاء البشر الواقفين تحت وطأة الشمس بلا امتعاض! لا يشربون لأنهم جُبلوا من ظمأ ولا يأكلون لأنهم جياع باستمرار! لا يلبسون لأنهم شبه عُراة ولا يسكنون سوى الريح والصديد : صديد الأسماك المجففة بالرمل والشمس.

•••

صرت أعرف أن المحيط قريب، من زَنَخ التجفيف ومن هُبوياته وأعرف أن الكائن ليس شيئًا آخر سوى قشرة من

طين! قشرة تكفيها النسمة لتطير، واللقمة لتحيا، ولا ترويها بحور الدنيا المالحة، كلها أعرف، وأرى، ولا أقول شيئًا وأى شىء يمكن أن يُقال فى هذا الصديد الممتزج بالرمل؟ هنا تحس أن «السلطة» أمام قسوة الطبيعة «لا قسوة لها»! وأنها أمام «الوجود» المعفر بالرمل بلا وجود!

هنا تحس أن الأمور هي، فى الحقيقة، فى يد الريح يكفى أن تهب عواصف الرمل لتسكن المخلوقات، وأن ترقى الشمس قبة الكون ليخلو الفضاء، ويسود الصمت!

•••

«لا شيء يولد كبيرًا» يقول صديقى الموريتانى، معلقًا! على أى شىء كان يعلق؟ وما همَّنى طالما أن القول لا يتطلب برهانًا، وليس له بالضرورة معيار كل القواعد، هنا، تبدو مهترئة وسخيفة، بما فيها هذه من يستطيع أن يعقل عالمًا غير معقول؟ أن يعقل عالمًا كهذا غير الشمس؟ غير هذه الشمس التي لا تبخل بضوئها اللاهب على شىء! حتى حبات الرمل تغلى وهي تلطأ تحت أقدام العابرين!

•••

في «البيد ونيفيل» (مدن الصفيح، حسب الترجمة العربية الخاطئة، ومعناها، فى الحقيقة، المدن الكاذبة، أو المدن المزيَّفة

المدن التى هى حثالة المدن) فى هذه المدن الصحراوية المحيطة بالمدينة الأم : «نواكشوط» (التي هي الأخرى، بيدون فيل، بالنسبة لمدن العالم) ألتقى بعيون صامتة، وبأفواه مغلقة ألتقى بأجساد هامدة بلا رغبات بأزوال لا أرواح لها بكيانات بلا كيان! أين تختفى رغبات هذه الكائنات؟ ومن أين لها بصمت مخيف، كهذا؟ أيكفى أن يملأ الرمل الأفق ليتحقق الإخفاق؟ وهو ما صار يملؤنى بالتعاسة والأمل أمل أن يدرك هؤلاء أن الحياة، بما فيها هذه التي لا أمل فيها، يمكن أن تنفتح، في أية لحظة، على المجهول وما على الكائن، فى هذه الحال، إلا أن يسترد من مخالب القدر الطاقة التى اختلسها منه : طاقة التمرد على وضعه! أم تريدوننى أن أُوئد نفسي في رمل يأسى؟

•••

غريبًا، أقف بين كتل البشر، فى مواجهة المحيط لا تغسلني الماء، ولا يردنى الرمل إلى الحظيرة أحسنى متطفلاً بلا حياء. البؤس، هو الآخر، له صبوة وحميمية. له قدسية لا تخترقها العيون المرعوبة مثل عيونس : عيون الكائن البائس الذي يعتقد نفسه بلا عيوب.

غريبًا، أحسني بلا صروح ولا وفادات أستحى من «نعمة المعرفة» التي لا أكاد أملكها، وأخجل من رقة الجسد! في

مواجهة هذا الخليط المرعب من البؤس، أحسني ظالمًا: تجمعت في ظلمات الدنيا، كلها، وظلمها.

هنا تحس نفسك عاريًا بلا حماء البؤس المتوحش لا يدع لك مجالاً لتنظير مآسيك، ولا لتبريرها أي وقاء يمكن أن يقي الكائن من الإنهيار؟ وكيف لا يتحمل المرء مسئولية حياة يحياها، حتى وإن لم يكن يدير شئونها!

•••

عجبًا! لهذا الشعر المتولد عندي: شعور البهمة والاختلاط! كيف أميز بين الكائنات الحية، وبين أسماكها الميتة؟ بين هذه الجلود الملوحة بالشمس، المطلية بالزنخ، وبين قشور هذه الأسماك المرمية بين أكوام الرمال؟ أي فرق بين كلب جائع، وبين رجل ضاوٍ بالقرب منه؟ ما جدوى قدرات العالم، كلها، إن لم تتمتع بها الكائنات، على اختلاف طقوسها؟

واقفًا، باندهال، كنت أريد أن أمسك بخناق نفسي أن أركلها حتى تطير من الألم حتى تفهم ما عجزت عن فهمه، دائمًا كنت أريد أن أركبها، كما تركب الأسماك الميتة ظهور الرجال صرت أحس، أحس أنني «تأخرت» كثيرًا في حياتي! وأنه لا جدوى من «تقدم» مقتصر على، وحدي أيكون الإحساس، لا المعرفة، هو

أصل الوجـود الواعـى، إذن؟ ألهـذا ترانا نـحس من نحـب، ولا نحس غيـره؟ أيكون لعـودتـي إلى مـسـاطب الحـواتين، للمـرة الثـالثة، خـلال يومـين بعد آخـر، أبعـد مما أرى : بعـد الإلتـزام المطلق «بـالآخـرين»! الآخـرون الذين تحـملوا البؤس عنا! ولكن، لم على الكائن أن يكون بائسًا، ورميًا؟

•••

تغيب الشمس للمرة الثـالثة في موريتانيـا تغيب على كثبـان الأوسـاخ المحيطة بالمحيط كثبـان الملح العتيق المخلوط بالرمـاد كثبـان النـاس المرتمين بلا فـواصل على الارض أية خـارقـة تدفـع الكائن لكى يكون حجرًا؟ حجر بائس، لا حجر عثرة مجيد!

في تلك الظلمة البادئة، كنت أتملى الناس حولى وأرتعد : لا صلة ولا تواصل بيننا! أتفـرق الظروف النـاس إلى هذا الحـد؟ إلى حـد البله واللامـبـالاة! حـد الاخـتـلاف الذى لا تآلف بعـده ومع ذلك أحـاول أن أفهم أنِ أفهم مـا لست بحـاجـة إلى فـهمـه : مـاذا ينتظر هؤلاء البـشـر من التـراب؟ ولـم ينظرون إليـه بمثل هذه المحيرة، وكأنهم «يضربون به الرمل»!

ومن أنا لأفهم شـأنا جليلاً كهذا : شـأن حياة خـالطت العبث منذ قرون!

•••

أسمع هدير البحر، وحدي (وكأن الصيادين بلا أسماع)!
وأرى، مذهولاً، أمواجه تتجول في الفضاء حولى (وهم يركبونها كالحمار) بها أتمتع، ومنها يعيشون تلك هيى نقطة الافتراق بيننا : علاقتهم بها حيوية، ولا يتعدى ارتباطيى بها حدود اللحظة والتحديق حدود أريدها أن تكون أزلية لكن البحر كالرمل لا يستقر على حال! أى سحر يسوقنى، هذا المساء، إلى المجهول، إذن؟ (مجهول ذاتٍ غدت من كثرة البوح مرثية!).

ماذا أفعل، غير أن أدير للشمس ظهرى! الشمس التى غرقت، الآن، فى الرمال أديره لها، لأرى القمر القمر الذي بدأ بزوغه، للتو وأصير أردد، بلوعة، أغنيتى القديمة : «يطلع القمر، ويغيب ويغيب، ويطلع»!

•••

غير مستقر أنا، هذا المساء (أو هكذا أحسنى)! ومن يمكن له أن يستقر فى عالم من ضباب؟ ولأن الرمل سيد الفضاء فإن كل شىء يبدو مهترئًا أو على وشك الاهتراء أنهكه الرمل منذ أول وجوده كل شىء من الحجر إلى الكائنات وهو ما سيملؤنى خيفة وسيلانًا أحسنى أتقطع كالماء، وأتذرر كالرمل

(وليس هذا مجازًا) أحسنى أحلق فوق نفسى، وأنا غارق فيها شعور بالجنون اللامرئى يجتاحنى، وأستسلم له بإرادتى.

•••

تحت لفائف الضوء والحرير، تحسبهن عاريات، نساء موريتانيا اللدنات يتسايلن وهن يمشين، وكأنهن بلا عظام! أية متعة تخبئها هذه الرقة؟ وكيف نحت الرمل جسومهن؟ من غرس فى وجوههن الحيية تلك العيون التى لا تهاب؟ لا الشمس تخيفهن، ولا الضوء يعيقهن عن الارتياب يقترين بلا وجل، ويبتعدن بلا إياب!

•••

في اليوم الثالث، تحت ضوء الشمس الباهر، نخترق «دشرة نوا كشوط» ذاهبين إلى الصحراء إلى «صحراء الصحراء» بالأحرى! نمر بالدور الواطئة الحائلة اللون، المحاصرة، فورًا، بالرمل وبالغبار لكأن «دشرة نواكشوط» سفينة عائمة فوق الرمال التى لا تكف عن مهاجمتها بأمواجها الطائرة.

على الرمل «المدجن» نطير، تصحبنا بأغانيها الرائعة «لبابة»، ذات الشفتين الجمليتين (من الجمل)، والوجه السفينى ولأننا فى جيب صحراوى هائل، تلعننا منذ أن نمر بقربها المرأة

القعود! إمرأة جاثمة فى الخراب، تذرى الرمال بيديها دون أن يبقى فيهما شيئًا سوى الريح! وأحس بلعنتها تخترق هيكل الجيب اليابانى لتصب فوق رؤوسنا : لعنة الساكن للمتحرك، والقاعد للماشى، والراجل للراكب لعنة من لا يملك شيئًا لمن يملك كل شىء!.

•••

على بعد خطوات من «دشرة نواكشوط»، ندخل الكثبان (هل خرجنا منها؟) كثبان الرمال الهائلة الحجم، المتكومة، بأبهة، فوق الأرض جبال من الرمل، ولا شىء آخر غيرها، سوى الضوء.. سوى لهب الضوء العاصف بسكون! سوى شجيرات بائسة تقاوم الاختناق، بصمت!

شمس قاسية، وسكون مطلق لا ريح، لا هزاز، ولا خفاق الشمس تعلن ساعة الظهر المخيفة، وأنا سعيد بذلك سعيد لأن شمس الطفولة تعود شمس «الجزيرة» الحمراء التي تقشط القير من الجنزير.

صديقي، ودليلي، «عبدالرحمن» يقود بهدوء ينظر جانبيًا إلى ما أكتب، وكأنه يريدنى أن أكتب المزيد يصمت الطريق، كله لكأن الشمس التى سيطرت على الكون، سحبت منه «حاسة

الكلام»! الكلمة الوحيدة التى كان يرددها عندما يراني أغلق دفترى : أنظر! أترى الصحراء! يقولها، صامتًا، مشيرًا إلى الجهات، كلها، دون أن يخطىء المرام لكأنه يتمنى أن يضيف احساسه إلى أحاسيسي ليكتمل المقام ولكن أية أحاسيس مشتتة يمكن لها أن تحيط بهذا الكون الأحمر الصاهد، غير الصمت؟ غير صمت أشد رهبة من صمته : صمت الإله الذي خلق الرمل من الماء.

•••

قرونًا أعود إلى الوراء! منذ متى كنت طفلاً في «صحرائي»؟ وهل ثمة صحراء كهذه! من يذكر ذلك غيري؟ أى جدوى من حياة لا تتقاسمها الذكريات؟ أنا الوحيد الذى يعرف معنى الرمل وبهجته؟ أى ضير في أن يعرف كثيرون غيري معانيه الأخرى، وبهجاته التي لا تحصى!

طائرًا في الضوء، كنت أبحث، بشوق، عن قيصوم «بادية الشام»، وعن شيحها أبحث عن أشجارها الواجفة فوق تلال الرمل، هناك هنا، جذوع «الشجائر» اللينة تتلوى مغروسة في الرمل! لكأنها تصر علي تسكينه، متضرعة إليه لئلا يذهب بعيدًا عنها لكن هذه الكثبان العظمى ستطير، ستطير مستعيرة أجنحة الريح وستطمرها، كما طمرت أخواتها من قبل.

أي سـوء فى ذلك؟ لم نحـاول أن نخضـع الطبيـمـة لأهوائنا!
وأية طاقـة لشـجـيـرات بائسـة فـي مـواجـهـة كثيب هـاجم من
الرمل؟

•••

نعبـر «وادى الناقة» سـريعًا لا تثيرنى مناظر واحته الصغيرة
الخـاتلة تحت جـبـال الرمل أشـجـار هادئة في وادٍ مـحـفـوف
بالمخاطر واد صنعه الرمل الماكر ليطير فوقه كالجراد الهاجم
على زرع داشـر أبحث بعـيـونى الداخليـة عن أشـجـار أخـرى
أشجار معزولة فى برية بلا ربوع لا أحب التجمعات، حتى ولو
كانت خضرًا مـاذا بقى لى، إذن، غير أن أرقى إلى الشمس؟ إلى
عـينهـا اللاهبـة، لأتبـخـر مـثل ذرارى الخـمـاء المتـفـولة في
الصحراء.

•••

أشـجـار «التـيـتـارك»، ذات الأغـصـان المتـجـمـعـة حـول جـذع
قـصـيـر، هـي، وحـدهـا، التى تعلو الرمل باطمـئنان تعلوه بقليل
لكنه «قليل» كـبـيـر من غـيـرهـا يجـرؤ على أن «يرفع رأسـه»،
مـهـفـهفًا، في بحـر مـتلاطم من الرمل أمـا أشـجـار «أم ركبـة»
القـزمـة، فإنهـا تستسلم للكثبان، منبطحـة تحـتهـا : «مثل وردة

تستسلم لحشرة تمصها» وما أن تغير الرمال مقامها، حتى تظهر متقاومة من انزلاقها الآسر، فارجة أغصانها، من جديد، بعد التمام عابر!

ي تواطؤ حيوى يجمع عناصر الطبيعة، ويعطى لهذا الوجود مغزاه؟

•••

نسير واقفين! نقطع مئات الكيلومترات، ونحن في مكاننا الشمس والرمل لا يتغيران (وهما مع ذلك في تغير مستمر)! وهل يشبه كثيب كثيبًا؟

فى الصحراء تبدو الطبيعة خرساء، وهي تتكلم كائناتها لاتعبر عن الحركة إلا بالسكون وفضاؤها معتم وهو مشرق الرمل يقرأ خفاياها، والريح تنقله.

ضوء شمسها الساطع يفضح كل شيء لا سر في الصحراء! كل مخبوء مكشوف الظمأ والجوع الرغبة واللهفة المكر والهبل الخطأ والخطل (فليس ثمة صواب فى الصحراء) الموت والحياة... كلها، تعانيها كائناتها بلا مزية تعانيها كما يقتضيه «منطق الوجود»! هذا الذي بلا منطق.

•••

الصحراء هي المطلق والمطلق يبتلع كل شيء، بما في ذلك «جثث» الأحياء الواقفة، بصبر، فوق الرمل «جثث»؟ وأي إسم آخر أليق بهذه «الحثالات» الحية، الساكنة تحت الشمس بخنوع، لا تقوى حتى على البحث لها عن ظل! عن ظل عابر الرمل، سيد الصحراء، وحارسها الأمين، هو الذي سيبتلع هذه الرسومات الحائرة، عندما يحين الأوان سيبتلعها فى جوفه الذهبي الساخن، كما تبتلع امرأة شبقة ماء العشيق.

•••

في «الصحراء موريتانيا» أشبع شموسًا وغبارا أشبع صمتًا ورمالا الأفق فيها قريب، وهو بعيد الرؤيه واضحة، وهي غامضة الضوء ينير ويعمى والوهاد تتوالد كالأجنة الرمل فيها ينبع من الرمل، لكأن الأرض لا تحوى شيئًا سواه!

بين «الأعلاب» و «الطرحات» نصعد ونهبط نصعد ونهبط بمتعة لا تقدر، كمتعة من يتلمس تجاويف سيدة منيعة في إحدى الطرحات نصل إلى «الفرات»! حيث آبار الماء المشروب منثورة كاللآلىء على الرمل «الفرات»؟ أردد، مستغربًا ويقولون لى إنما من آبار الجنة آه! الأساطير نفسها! أساطير ما بين النهرين العظيمة أم الأساطير، كلها.

بعـد طرحـة «المبـروك»، و «دار السـلام»، نصل طرحـة «الطائف» مرة أخرى، أماكن وأسماء! أسماء مستعادة، حتى لا أقول مستعارة، أم تاريخ مردد؟ أى تبرير يجعلنا نوسم هذه الصحراء المتشاسعة بأسماء محدودة، نكاد نحصرها بين فكينا، سوى الاستلاب؟ استلاب التاريخ الساكن بتاريخ متحرك استلاب الرمل بمن يجرؤ على تحديه.

•••

في «بتلميت»، وهي بلدة صغيرة في الصحراء، بيوتها تلطأ تحت كثبان الرمل، منتظرة أن يدمها، ذات يوم، يعيش الناس بلا مبالاة لكأن الرمل أنساهم الأمل والخوف، معًا أناس يتحركون وهم «سكانى» ينظرون حولهم بلا انفعال وإذا سألتهم لا يجيبون!

عم يمكن لك أن تسأل، وهاهى ذى الصحراء مرمية أمامك بلا حجاب؟ الشمس لاهبة، والرمل بلا ظل، ولا هواء يحرك الألسن والشفاه وفي مقلتيك تنعكس الظلال: ظلال الأوهام المخبأة فيى بطنك كالجرابيع الآن أدركت (آمل ذلك) أن «المعرفة» هى ما تحس، وما ترى، ما تسمع، وما تطول، لا ما تحلم به وهى، كلها، واحد! عم ستسأل، وأنت لا تعرف حتى موقع السؤال؟

•••

في قلب الصحراء كنت أتعجب : لم قبة السماء زرقاء إلى هذا الحد، وأطرافها شهب؟ ولم أكن أعرف أن الضوء يتكثف في الأطراف لينقذ الكون من الموت شمس الصحراء هي التي تدفىء العالم وهي بعد أن تغرق الصحراء بضوئها، توزع ما بقى منه على بقية الكون، منيرة أطرافه الغارقة في الظلمة، باعثة بعض الدفء فيها.

•••

عند المساء نخرج من الجحيم لجأنا إلي خيمة «احميِّد» الواحدة ظهرًا، وهاهي ذي الثامنة مساء، ولا نجرؤ على الخروج سننتظر ساعات أخرى قبل أن نتمكن من الوقوف في وجه الخيمة الجميلة كانت الشمس قد أدخلتنا الحظيرة، عنوة، وهي، الآن، تتابع حجزنا في فنائها المحاصر بالضوء تحت تلك الخيمة الصامدة حسونا اللبن ومرق اللحم : لحم ضلوع الجمال الهائلة الحجم أكلنا التمر والسمن انبطحنا، قمنا، قعدنا، ولم نفلت من وطأة الحر! تجمعت النسوة، حولنا، وتفرقت، فركنا أفواهنا بالمساويك، وتبتلنا كالرهبان، تحت أقمصة الحرير الواسعة، ولم نخلص من قبضة الشمس.

نتهيأ في ظلها ونحن قعود : من يستطيع أن يقف على قدميه وسيف الشمس مسلول؟ وفجأة يؤنبنا «حميد» : لماذا

تحوصون كالجديان؟ الشمس، مصيرها أن تغرب، والحر لابد أن يزول، أي شيء يدعو لاستعجال ما سيحصل فى أوانه غير قلة العقل؟ اقعدوا!

•••

في فترة «الدحميس» نغامر بالنظر إلى البر إلى بر مليء بالضوء والسكون حتى النسوة، ذوات الارداف العظمى، تجثم بلا حراك لا تكلف نفسها عناء حركة هي في غنى عنها يدخل، ويخرج من يحب، وهى لابدة، مثل أنثى القطا فوق بيضها المليء بالفراخ.

في «الصحراء موريتانيا» المترامية الأطراف، تبدو الكائنات، وهي تزحف بين كثبانها العظمى، ديدانًا لا كينونة لها، ولا أثر! لكنها ديدان تعرف أين تضع أقدامها، وكيف تذهب، وتجيء تعرف، فى هذه الصحراء اللامتناهية، التي لا تعترف بالاتجاهات، اتجاهها! وفس العصير تجلس، متأملة، فوق ظهور الكثبان متطلعة، بلا ملل، فس فضاء فاغر فاه! فضاء مستعد لابتلاع أحياء الكوكب الأرضى، كلها، بلا عناء.

ولكن، لم تراها لا تكف عن «الحركة في مكانها» والكون حولها ساكن من الضوء؟ لماذا لا تصدر صوتًا عندما تنتقل؟ وما

يملأ هياكلها المطبقة؟ بماذا تحدق هذه الوجوه المحروقة؟ وأي شيء يعقد ألسنتها، وهي تلوك الكلمات؟ أتكون تلك هي السعة، وقد أدركها العمق : سعة تتساوى فيها الكائنات، كلها، بلا تمييز! فليس ثمة مجال للتنافس، ولا مكان للزحام!

•••

لا ضوء أحمر في الصحراء الكائنات هي التى ترسل أضواءها الحيوية لتتجنب الأخطار وفى عواصف الرمل الرعناء، يمكن أن يختنق أى كائن، بأي شيء، حتى بلعابه الشمس الأزلية، نفسها، لا تقاوم موجات الرمل المرعبة، المولدة للاختناق! هذه الموجات العظمى التى ستحصرها بين ذراتها، بلا رهبة، ساحبة منها نورها، مثل امرأة تسحب زبدة الشتاء.

هنا يبدو، بشكل واضح، أن وجود الكائن، فوق وهاد الرمل، زائل وعبثي : لا يترك أثرًا، ولا يبنى عليه وجود غير متراكم، تمامًا، مثل «اقتصاده» المعد للاستهلاك الفورى المباشر.

كنت أحلم بالخلاص من السلعة (مثل كل المتطرفين التعساء)، وهأنذا أقع على عالم يحيا، منذ الأزل، بدونها، دون أن تتحقق سعادته! أية حماقة تولد في ذهن الكائن إطروحاته،

إذن؟ وكيف تصير، هذه، مصدرًا للإقفال عليه؟ كيف تصير دوغما وقيودًا؟

•••

أترك «الصحراء موريتانيا»، وأنا أحس أنني لم أتعلم شيئًا سأعود بما أتيت به : قناعات سخيفة، وقواعد مهترئة، وأفكار جاهزة (على طريقة كبار شعرائنا) للإجابة على كل الأسئلة، حتى تلك التى لا تطرح! وفى الحياة الحقيقية، التي «رأيتها»، هنا، لا مجال للأسئلة، ولا للأجوبة، أيضًا فما بالنا نتعذب في «تفكيك وتركيب» مفاهيم بائخة، لا جدوى منها!

هنا يبدو واضحًا أن تلقف «مفهوم الحداثة» الغربى، وتقليده بشكل «قردي»، شوه مسارات ومشاريع، خرب قواعد وحيوات، وفتت تراكمات تاريخية عظمى لصالحه (لصالح المفهوم الذى لم يكن معلومًا)! وهو ما يحيرك الآن، وأنت تنظر حولك مرعوبًا تنظر فى هذه الكتل الإنسانية الداشرة، مثل قطعان بلا رعاة! حتى لتكاد تتساءل إن كنت لازلت على سطح الكوكب الأرضى لكن الصحراء التى تبقى، لحسن الحظ، عصية على التخضيع، هى التى ستملأ مهجتك بالنشوة والانتصار : انتصار الكائن المحدود على جهله الذي بلا حدود!

•••

السمنة جمال. تتبختر الموريتانية بجسدها النواس لكأن قسوة الصحراء حلت نعومة فيها وهى صيادة تعرف كيف تصيدنا وهى تمشى، وهي تضحك، وهى تحكى، وهي صامتة بلا لسان، وهي تتفرش على الأرض، وهي تلملم حواشيها التى تكاد أن تتخلى عنها آه! من أين للصحراء القاسية بهذا الجمال الآسر؟

ألهذا يسمون جنس هؤلاء «بالبيضان»؟ والواحد منهم (والواحدة كذلك) مزواج همه التمتع بالجسد وبالريح الواحد منهم، كما احسست، كالصقر يرى «الآخر» فيشتهيه، ولا يعف عن نهشه حتى يموت...

أما «الزوايا» (وهم المثقفون) فلا يختلفون عمن عندنا منهم : كلمات، كلمات، كلمات.

«الزناكة»، وهم الفعلة، وأهل الرعي والخدمة، لا يختلفون فى شىء عن أشباههم ممن يسمى : «البروليتاريا الرثة» في جهات العالم الأخرى لكأن «ماركس» لم يقل إلا حقاً!.

وفوق هذا، كله، يبدو «المجتمع» الموريتانى «مجتمعًا نسبيًا» بل شديد التمسك «بالنسابة»! لكأن رياح الصحراء وأهواءها، تقلبات رملها وهشاشة حشائشها، لم تعلمه إلا التمسك بالخواء!

•••

كانت الصحراء غاضبة هذا اليوم وعندما تغضب الصحراء يترمل كل شيء : الغيم، والضوء، والبحر، والكائنات! تتحرر ذرارى الرمل التى كانت ملتمة لتطير فرادى تصير تحوم مثل طيور مجهرية فى الفضاء ويغدو اللون الفضى سيد الكون ولأول مرة، يتجلى لي غموض الفضى وقسوته! كنت أحسب أن الأسود هو الغامض، ولم يكن الأسود، في هذا المناخ، سوى بقعة من نور!

في عواصف الرمل التي لا تقاوم، كنت أفكر بلا انقطاع : أين يكمن الخلل فى علاقة الإنسان العربى بمحيطه؟ وكيف يمكن مقاومة الاندثار؟ كنت أرى واضحًا مدى القهر، والزيف، والقمع، والانكسار أرى الخنس النفسى، والانهيار عند هؤلاء البشر الهائمين كالبهائم في الفضاء إلى أين تراهم يسيرون بلا مبالاة؟ وأي ملجأ سينقذهم من بحر الرمال السماوية؟

كان يبدو واضحًا أن الحياة لم تعد تعني عندهم شيئًا آخر سوى «الفوت»! صارت «عدًا»، عند من يعرف كيف يعد ولم يعد للموت ذلك البعد المخيف صار حالة من حالات التردي الأخرى، التي يعيشونها، الآن، أمام عينى. اللعنة!

•••

عندما يسيطر الرمل على الفضاء فإن كل شيء يغدو رملاً (ترمل السماء، والأرض بالأصل رمل) الأحجار والماء والأحياء والزواحف والحافريات، الأسد والثعلب والجربوع والنسر والأفعى، كلها، تتخاوى حين يهب الرمل لكأنه يذكرها بمصيرها المحتوم بوجوب خضوعها المطلق له حتى فكر الكائن لا يجرؤ على الابتعاد عنه خشية أن يتيه وجسده لا يغامر، ولو بخطوات قليلة، حتى لا يغرق يصبح الكائن، كله، كتلة واحدة، هدفها «البقاء على قيد الحياة» وهو، شأن كائنات الصحراء الأخرى، كلها، من الأشجار إلى الأحجار يغدو جزءًا من هذه الدوامة القاسية التى هي «الحياة اليومية»! وهى، على الأقل، ليست حياة طفيلية لا تزعزعها الأحلام، ولا تفسدها الأوهام آه! كيف أعبر عن ذلك؟ كيف أشرح ما لا يحتاج إلى شرح؟

•••

تكاد تكون كلمة «المطر»، كلمة لا ملموسة كلمة «متخيلة» تمامًا المطر، هنا، شيء مطلق! و «مطر على الكثبان» تبدو شديدة الإستحالة : مثل «حديد يرقص طربًا»! والقادم من أوربا المفعمة بالماء، إلى موريتانيا المترعة بالرمل، كالقادم من كهف مائي إلى أديم من الجمر... وفجأة، أجدنى أكف، بقسوة،

عن هذه المشابهات البليدة عن تشبيه وجود بما لا يشبهه ففي الحياة لا يشبه شيء شيئًا آخر، أبدًا ولكل عالم نكهته.

•••

في الصحراء لا ينتظر المرء غياب الشمس، ولا شروقها، أيضًا للقمر دور حاسم، يكاد يقارب دور الشمس للنجوم أساطيرها وتدابيرها للجهات، في الصحراء، طقوس وأماديح للفصول خصائص ووصايات للنوء فيها تصاريف لا تلمس، وإن كانت ترى بالعين حتى الرمل يبدو كائنًا حيًا يعايش الناس، ويخالطهم، كالريح والنسمة والضياء لماذا أتذمر؟

في الصحراء لا وجود لشيء آخر سوى الصحراء الصحراء محشوة بالكون، وكأنها تلخيص جوهري له فيها «ماهب ودب»، وهي لا تخفي أسرارها عمن يريد أن يراها لكن المتطفل عليها لا يرى منها سوى الغبار في بحور الرمال التى لا تتغير (مع أنها في تبدل مستمر) تتمحى الذاكرة، ويهيمن الخيال يغدو الكائن قطعة منها، ولا يتحرك عقله إلا للاحتماء.

علاقة الكائن بالمكان فيها تغدو علاقة خطية، أفقية، حتى ولو اتجهت إلى الأعلى! علاقة تحكمها البساطة والوضوح لا تحتمل التأويل، ولا يهمها التحليل أقرب إلى البراءة، منها إلى الغباء علاقة أمية بامتياز.

•••

لا شيء يملأ العين سوى الصحراء هنا تدرك لمَ يسكن الزهاد في الصحارى والقفار هم يفعلون ذلك ليروا العالم، كله، بلا نقوص ليستوعبوه، دفعة واحدة، كما يستوعب الطفل حبة في يدية.

في صمت الصحراء المعمم لا يتكلم سوى النظر وعندما تتكلم مع أحد فيها يستمع إليك باهتمام، قبل أن يجيبك صمتاً لكأن الكلمات ستلزمه بما لا يريد.

الأرض في الصحراء ليست هى الأرض إنها تراكم الغبار الأزلى وهى لينة تحت قدميك وإذا انبطحت فوقها تسيل، وهو ما يوحي بعدم الاستقرار المستمر، ويدفع إلى البحث الدائم عن شيء صلب تمسكه بيديك، حتى.ولو كان وهمًا.

الأرض كرة من غبار، وأنت تسبح فيها.

•••

يوم الصحراء ليس طويلاً، ولا قصيرًا، إنه دهر دهر ثابت الملامح، وراسخ، منذ أن تبزغ الشمس شرقًا، إلى أن تذبل غربًا وفي هذا البحر من الضوء الثقيل، تحال الكائنات، على اختلاف حدوسها، أن تجد لها ظلاً تلك هى مشكلتها... الحيوية.

أنا عابر، ولكم أشعر بالسعادة لأننى كذلك لأننى تخلصت من شروط الأمكنة، ومن ذلتها تخلصت من اضطهاد المكان لي، ومن تلافيفه لا هنا ولا هناك، أنا عابر أنا الكائن - الطير والعالم بيتي.

●●●

لا تدفنونى عندما أموت ولاتحرقوا جثتي كالمجانين. إلقوني عاريًا في الصحراء دعوا وحوشها الكاسرة تنهشنى وتذرو رمالها الصفر على جبهتى وحولي تتطاير أشواكها الوخازة كأبر الجليد.

دعوا نسورها تنتف أحشائي وفوقي تمر أفاعيها الرقط ساحبة أجسادها المخروطية الملس أريد أن أتحلل كما تركبت أن أتفتت كما تكونت أن أعود إلى حيث كنت. أن تحضننى أمي الصحراء، كما فعلت أول مرة.

## هوامش

ـ الدشرة : البليدة، أو المدينة «اللامحمية» (وكان بدو الصحراء المحمين بحركتهم المستمرة، يعتبرون سكون المدينة واستقرارها الجغرافى دشرًا)

ـ الأعلاب : أعالى الهضاب الرميلية، أو قمم جبال الرمل بالأحرى.

ـ الطرحات : المنبسطات الرملية المتكونة بين جبال الرمل، وقد تكون أحيانا خضراء، مثل سهوب الجبال.

– البيضان، الزوايا، الزناكة : فئات اجتماعية متمايزة إلى حد ما، وإن كان من الصعب لغريب عن المجتمع الموريتانى إدراك خصائص كل منها.

ـ «الدحميس» : فترة ما قبل غياب الشمس بقليل، وفيها يتبدل النوء، وتفقد الشمس سلطتها على الصحراء، وتبدأ الكائنات بالحركة والظهور.

# ليشبونة بيسوا

قبل الرحيل نبدأ بالرحيل!

كنت أريد أن أصل، قبل الغروب إلى «بيكسا» حيث «بيسوا» العظيم يتفنن في الأطعمة والمقولات، يستحث بإلحاح حصافة تحليله العميق. يحاول أن يرى عبر المشهد العابر مايخبئه من «مشهد حقيقى»!

قبل الوصول إلى البداية و(الأشياء، دائماً، ببداياتها، لا بنهاياتهات، كما علمونا، وهو مايقتضي منا أن نتحرر، منذ البدء، من الوهم ومن القمع المرافق له، فلا قمع بلا أوهام) قبل الوصول، إذن، أتوقف، قليلاً، في «براسا دى أسبانيا» حيث

قوس النصر الصغير جدًا، يتوسط ساحة بلا حدود! بلا شكل معقول، أقصد.

بالقرب منها أمر على «ساحة الأحذية والمطاط»: أفارقة وثنائيون، كلاب، وبؤساء، ألوان وأقمشة من حرير اصطناعي يذوب في شمس حزيران الفائقة النور. ضجيج راقص يملأ الساحة: لكنني في أسواق «دكار»! في تلك الساحة المرمية على الأرض بعجالة لا مبرر لها سوى الانفعال، سيسيطر على روحي كلب أعرج يبحث بحمية عن لحسة تنقذه من الموت جوعاً. ولن يلقى سوى الروائح المتراكمة في فضاء مدينة مرهقة من التاريخ.

يسوقنا العبث حتى النهاية، حتى نرى الأشياء التي نحبها وهي على غير مانتوقع. لكن «الرؤية الخائبة»، هذه، ليست عبثية، دوماً. فما نراكمه في أعماقنا من انكسارات لابد أن يخترق، ذات يوم، متاهات وهمنا الغبي: الوهم الذي أعمى بصائرنا ولقيانا.

في «بيكسا» أقف حائراً: إلى آي الأنحاء أتجه، ومن أي زاوية أشرب النور؟

أخيراً أعثر بالصدفة «وللصدفة مآثرها المعرفية والفلسفية الكبرى) على «رويا آغوستا» (شارع أوغست) الذي سيقودني

مثل حصان متعب من الهذب حتى حافة النهر الذي سيتحول، بعد قليل، إلى محيط نهر «تيجو» المشرق الذي لا يتردد في أن يلقى بنفسه في خضم العدم، أن يمزج مياهه الهادئة بأمواه المحيط الأطلسى المتلاطمة، حيث مصير الكوكب الأرضى رهن أمواجه. «نهر التاج» الذي يحيط بالمدينة بصمت، تسلكه قوارب العمال القادمين من أعماق البلاد، لتحط بهدوء في أطرافه، كل صباح، قبل أن تتوزع على الأسواق. في حشودهم المتزاحمة أرى العامل المطبخي الذي ظل «بيسوا» يراقبه عشرين عاماً آكلاً مايخرج من بين يديه، دون أن يتوجه إليه بالكلام: العامل الذي كان مفعماً بإرادة ألا يكون شيئاً، ألا يكون أحداً، ألاّ يكون أي أحد!

للشعوب حضارات كبرى وإن بدت في أنظارنا صغيرة. هنا أكتشف جزءا من الإنسانية المهمل والمخبوء. أكتشف أن نفس الأفكار لاتنتج، بالضرورة، نفس المشاعر. وأن الكائن الذي يعبر حدود العالم يصبح، مثل الغيم، بلا حدود. وهو ماصار يقلق روحي إلى حد الهباء الضارب في العبث والخوف. هنا، أتذكر بحرقة «أوطانى الكثيرة» التي كانت تتلخص في واحد منها. «وطن» لم يعد على أن أقدم له تنازلا، أو أن أفعل من أجله أمراً، ولم يعد له الحق في أن يتطلب منى شيئاً، منذ أن تخلى،

نهائيا، عن «صيانة الكائن» من الإنهيار! وذلك هو، تماماً، معنى القطيعة. لكنني في «بيكسا» البرتغالية، استعيد بلوعة تلك المشاعر الأساسة التي عذبتني، ولازالت، بخصوص الارتباط العفوى بأرض، إن لم تعد وطننا، فهي «أمة»! أمة لايمكن التخلى عنها حتى ولو نفرنا منها! لماذا لاتريد السلطة العربية أن تفهم هذا؟

التقى في الساحة العظمى (حيث نهاية بيكسا الأثير على قلب فرناندو بيسوا) بـ«جوا» الأول، ممتطياً صهوة جواده، ناظراً بتأمل عميق نحو الجنوب، متهيئاً لكى يترجل عنه خائضاً في مياه «تيجو» ليستقبل السفن الآيية من بعيد: سفن محملة بالبشر والعبيد. على متونها تقبع نسوة نحاسية البشرة، مفتولة الأعضاء، حزينة وصامته، مثل حيوانات برية لاتفهم ماحل بها، وأن كانت تشعر بالرعب منه. آي «جوا» المخيف! أكان يفكر مذ ذاك بمجاهل وحصانات ستكشف فيما بعد؟ أم كان يتأمل النهر الذي سيصبح للتو محيطاً: نهر «تيجو» الجاثم بإصرار فوق بطن الأرض، مثل رجل هيب ممتلئ بالشهوة؟

ولكن لماذا تراني أشرح الأمر، هذا الصباح، بهذا الشكل، وكأن الحياة مجموعة من الأفانين؟ لماذا لاأرى عبر هذه المياه

المتلامعة أوجه المدينة الأخرى التي تخبئها، بإتقان عني؟ لماذا أصر على «التوضيح» لئلاً يخطيء القارئ، وكأني مسؤول عن خطئه! و«خطؤه»، في النهاية، مصدر معرفته الوحيد، ومتعته، آيضاً. أنظر! كيف يدير «جوآ» الأول ظهره للقلعة التي تعلو ليشبونة، بجلال! من غيره يمكن أن يتحلى بمثل هذا الصبر بانتظار أن تحل المعجزة؟

قف! في هذه النقطة، وانظر! أنظر! كيف يبدو الرجل حزيناً وكأنه يودع جزءاً من تاريخه الشخصي؟ آي شئ يغريه في صفيح النهر، وبآية كنوز مائية يحلم؟ هاهو ذا يكاد أن يترجل عن حصانه الحجرى ليلقاها! يلقاها متعففا، وكأن السماء وهبتها، من حيث لايدري، له! طمأنينته الكاسحة تفجر ينابيع الشر في نفسى. لماذا لاأتابع السير وحيداً في مساء ليشبونة الكئيب، هذا؟

مساء يستقر بي المقام في «براسا دى برو كواترو» (ساحة بيدرو الرابع). ساحة تتألق حول تمثاله المهيب. إهداء من الشعب إليه: «إلى بيدرو كواترو أوس بورتيفيس». أتمثل حصانه التمثال وجماله، وأكاد أن أبكي، أبكي لأسباب تعرفونها أكثر مني، نحن العرب البؤساء صرنا نخاف من الريح في البرية،

ونحتار من شدة القمع الممارس علينا، حتى ونحن بعيدون، ولكن من كتب علينا الذلة والمسكنة حتى يوم القيامة؟ اللعنة.

حصص وأماديح، أساطير وانشغافات، لكن الإنسانية لاتنسى من يحسنون إليها، ولا من يسيئون، آيضاً. وفعل التحرير لايعادله رلا الاعتراف النبيل به. ومهما بدت الأمور مفرطة في المغالاة، فإنها تشف عن حقيقة ما، عن جوهر يلتقطه الكائن الذي يبحث عنه. في ضوء هذا أعيد قراءة الإهداء من جديد، وأنا أبكي فعلاً!

«في خضم الصدفة نشأنا»! والنشأة هنا، ليس بمعنى الوجود أو الكينونة، وإنما بالمعنى الأبيستمولوجى للحياة. فقد كان يمكن لى أن أظل راعياً في الحماد، أو أن أكون عتالاً «بدون حكم القيمة السخيف المتضمن في العبارة» في عرضات «الجزيرة» السورية، ذات العجاج الرهيب. لكننى، بالصدفة، صرت مالم أكن مهيئاً لأصيره، وهو ما أعطاني، ولازال «بداعة الوجود»! «فالصدفة المعرفية» (وهي أهم صدفة في الوجود بالنسبة للكائن) هي التي تؤطر حياتنا، منذ أن نعى أبعادها، بإطار من الشجاعة والعبث، ماذا ننتظر من الحياة، إذن، غير متعة السفر، غير أن نظل نسافر، باستمرار؟ السفر، في مثل

هذه الحـال، لـيس تعـويضـاً عن بؤس الوجـود عند الـكائن، وإنما مصـدر من مصـادر معـرفته، وتعلقـه بالحياة. وأكاد ألمس القرف على شـفـاه «بيـسـوآ» اليابسـة، وهـو الذي لم يـغـادر، مـثل نجـيب محـفـوظ القـاهرة، لشـبـونة، مـدينته الأسـاسـيـة التي نشـأ فيـهـا، وأحبها، واحتقرها بعمق، حتى الموت.

الشكل إجمـال. إنه مـجـمـل القـوانين التي تحكم المكان. ولو كانت الإنسانية أقل تبـجـحاً، وأكثـر رحابة، لاعـترفت بأكثـر من إمكانـيـة للـجـمـال. لـرأت الكون بـعـيـون أخـرى، تتـجـاوز الحـدود التـراثيـة الغـبـيـة. لتـخلص من النظـرة الأحـادية للعـالـم. نظرة شـوهت مشـاعـرنا، ومـلأتنا بمقت الآخـرين! اكتـشـاف متـأخـر؟ وأي ضير في ذلك، فنحن، كثيراً، مانكتشف الحياة (كما الموت) مـتـأخـرين. ولكن لماذا تراني أنهمك، الآن، في شـرح هـذا كله؟ ولمن؟ الثقـافـة العـربيـة البائسـة: «ثقـافـة الرضـيع من غيـر ثدى أمه» هـي التي جعلتنى أتشـدق، هذا النهار، بمثل هذه التـرهات. «ثقـافـة الزحف المدنس» التي استـبـدلت جـوهـر الحيـاة بعـيون مؤسسـاتهـا الأم، تلك التي لاقيمـة تاريخية لهـا، ولاأسـانيد هي التي حـرمتني من «عيوني الحـرة» التي أجهد الآن لأسـتعيدهـا، بعـيداً. ومـاأوحى لى بذلـك هو صـمـود «بيـسـوا» المعـزول، الذي عاش طوال حيـاته في ليشبونة القديمة يعمل ويكتب ويتفلسف،

دون أن يتنازل في البحث عن «قراء» صاروا، بالنسبة لمثقفي السلطة العربية، «حدا جديدا» من حدود الحياة! لكأن من لا يقرأ، على الفور، لا وجود له! والقراءة، كما تعلمنا من «بيسوا»، ومن قبله من «ماركس» بأفقها التاريخى، وبصيرورتها المستمرة، لا بما تكتنفه الآن، ولا بما تستثيره من خبل القراء.

نظرة أخيرة، صباح ذلك الأحد، إلى الساحة، إلى ساحة «أسبانيا» قبل أن أهبط إلى النفق، إلى نفق المترو الذي كان خالياً تماما، ذلك الصباح الفج، مثل عورة بلا نظير.

أتجه، من جديد، إلى «البيكسا» باحثا عن شوارع «بيسوا»، وعن مرابضه، شوارع رثة، يتراكم العبث فيها مثل خيوط العنكبوت. أقف ساعات أتملى الضوء فيها، باحثاً عن ظلال العبقرية التي تجعل الكائن الهش عملاقاً.

وتتحول في عينى مرارة الحياة التي عاشها بيسوا إلى نفحات من النشوة التي لاتفسر. وسأعترف لنفسى، وحيداً، ولا حاجة إلى وثائق أو مبررات (وهي الصيغ التي صار يلوكها كثير من المثقفين) أن الكائن الذي يقف إلى جانب نفسه سيسانده العالم، كله. وأن الاكتشاف المتأخر (حتى ولو معتماً) لمبدع كبير، أفضل من بريق ساطع ينير صلعات المتشدقين.

ماأن أخرج من محطة «بيكسا ـ شيادو» حتى أجدني في أول شـارع «فيكتـوريا». وهو شـارع يتقـاطع مع الذي أبحث عنه في شـارع «فيكتوريـا» أقف ساكتاً ووحيداً. أتملى انحداره الجميل مثل فج بين هضبتين. في آخره، تماماً، تتربع القلعة التاريخية المطلة على أنحاء الأرض! «كاستيلا سان جورج» التي سأمشيها بهدوء مليء بالورع والمتعة، مثل أعمى لايريد أن يضل الطريق. أمشى متخفيا حتى لايلقطنى «الباترون باسكيز» تاركا عملي في الشارع الذي يلطأ تحتها، بأمان: «دوس دورادوريس»! شارع «بيسوا» الميتافيزيقى.

وكما البارحة ليلا، أقع في شارع «أوغست» الشهير ألذي يوصل قلب ليشبونة بضفاف «التاجو» وبعد «دوس كيروريس» هآنذا في شـارع «براتا» الذي يشهد على ماضى «البرتغال الكونى»: أبنية رائعة من الفسيسفاء الأخضر والأزرق، أبنية مليئة بالبشر والإنس، يلوث الحمام الآهل فسحاتها بذروقه الرعناء، وتتمايل في واجهاتها العجائز بدلال، وكأنهن على موعد مع التاريخ، ناظرات بإعجاب إلى مآثر الكون.

في نهاية «فيكتوريا» تماماً، أصل، أخيراً، إلى «دوس دورا دوريس» حيث كان «بيسوا» يعمل ويكتب. شارع صغير مهمل

مليء بالأبنية المهترئة ذات الواجهات الفسيفسائية العتيقة. شارع يوحي، منذ البدء، «بالعبث الكامن في جوهر الحياة»! في منتصفه تقبع كنيسة «سان نيكولاو» بحجمها الأسطوري، التي سببت لبيسوا أكثر من كابوس أخلاقى، ومن لوعة، واضطراب. شارع صامت في يوم الأحد، هذا، وجئت أبحث عن كلام! أصور الشارع من جهتيه: الظل والغمام. أقعد فيه قليلا، مستعيدا رؤى «بيسوا» الكارثية»، ونظرته العبثية للتاريخ: لتاريخ مبنى (في مطلقه) على القمع والاستغلال! وكما يشرح: ليس العبث كامناً في الحياة (أقصد العيش) وإنما في الرؤية والتقدير. إنه عبث الفهم القاصر للذات وللغير. فالمرء يظل يحسب نفسه «كائناً آخر»، وأن الآخرين لم ينفذوا، بعد، إلى جوهره، إلى أن يموت!، وهو مايجعل الحياة، في الواقع، لعبة غبية يلعبها أناس تافهون (إلا عن من حمته الطبيعة بوعى خارق)!

الحاجة إلى شجاعة أخلاقية، تجعلنا نحسم تواطؤنا مع ذواتنا لصالح الغير، (وهو مافعله بيسوا في مجثمه الليشبونى) هي الخطوة الحاسمة في الحياة. وهو مانتعلمه من هذه الواجهات التاريخية، التي ضلت طريقها في مسيرة الكون. وفي صمت الأحد المهيمن، هذا، لايكمن الخلل في أنك «هنا»

وفحسب، وإنما في أن الكائن يظل يعتقد نفسه على غير ماهو عليه حتى آخر يوم من آيام حياته التي لاقيمة لها، في الحقيقة (ولكن، هل ثمة حقيقة في الحياة؟).

يغلق شارع «فيكتوريا» بشارع «فانوويرس» شارع من عصور أخرى. تسكنه، وتتحرك فيه، كائنات غريبة مثل موظفين اهترأوا من العمل في مصلحة الحسابات في الطابق الرابع، تحت إمرة الباترون «باسكيز» إنهم أنداد «بيسوا» الآخرين الذين غرف من أرواحهم التعسة أحاسيس «لاطمأنينته» المرعبة. وهم الآن، مثل يتامى صغار بلا كبير، يجوبون الشارع الجهنمي، دون أن يدركوا إلى آي نحو يتوجهون! ماذا لدى لزقدمه لهم، لهؤلاء البشر الممتلئين اهتراء، سوى هزة الرأس التي لاتعبر إلا عن العجز؟ عجز يشعرني بالخسارة قبل أن يملأني بالوجد. لكأني استعملهم واسطة للتوصل إليه: إلى قلبى المحشو بركام مرهق، مصدره التعقل والسكون. آي شيء يجعل الكائن ثابتا في جوهره، وملتبساً في حياته، سوى البلادة؟

أعرف أني لم أمش، مرة أخرى، هذه الشوارع ولن أرى، ربما، هذه الوجوه. ولن أتملى هذه المصادرالعظمى للمعرفة

الإنسانية. لكن زرعها العميق في نفسي سيستمر بالنمو، طويلا. فالحضارة التي تنبت لاتموت، وهي، وحدها، التي ستقاوم الاهتراء.

كاتب عبثي جعلني أحب مدينة، ومدينة صامتة جعلتني اكتشف الكون. اكتشف أن أبعاد الكائن لا حدود لها، وبخاصة عندما يكون «كاتبا عبثياً» لا خشية لديه من أحد ولا رغبة عنده في التنازل، أو الخضوع. آية حماقة، إذن، تجعلنا نتردد في إعلان احتقارنا لواقع لانحبه، وكرهنا لحياة مسئمة وبليدة، سوى القمع؟ الذي يرن في أصداغنا كالطبول.

أريد أن أقيم، أن أقيم هنا. أن أثبت لنفسي أن «وطن» الكائن هو «الكون»! هو الكون في آي نقطة منه أقام. وهو المكان الذي أحبه ساكنوه أولا. المكان الذي سمح لهم بالتعبير عن مشاعرهم بلا قيود، والذي رضعوا الحرية فيه: حرية أن يكونوا كما يحبون.

أصعد مع الصاعدين البرج الأحمر الوحيد في ليشبونة: برج سانتا جوستا. أريد أن أرى المدينة من أعلى آجرها الأحمر يغطى الفضاء بلون فاخر وعميق. لون يقول لنا أن ثمة أشياء ثمينة في الحياة، وأن علينا التفاعل معها بعمق. يجعل الضوء

العارى أقل سطوة، وأكثر احتشاما. يساوي بين الغامق والرفيع. تمتصه الأبنية المتراصفة بتناسق مرعب، لتملأ الجو، عند الغياب برذاذه الجميل. لكأن «بيسوا» كان يعاني من هذا الانسجام المفروض بالقوة على الفضاء.. على فضاء النهر الأحمر الذي يحيط بالمدينة كالإسار، نهر «تاجو» قبل أن يبلعه الأطلسى.

من أعلى البرج المعدنى المربع أشرف على «البيكِسا»: حي «ليشبوا» الواطئ، أرى النهر الفضى يتموج متبختراً، في البعيد، قبل أن يلثم أفخاذ المدينة وزواياها السرية. نهر تاجو» الذي سيتحول، بعد قليل، إلى محيط لابد أن اسمه «العربي» مشتق من «التاجى» وهو شريان القلب الرئيسى. الشريان النبيل الذي هو مصدر الحياة. فوق هذا النهر المتضاخم سأقطه، ذات يوم، برفقتها جسر (٢٥ أبريل) الهائل، الذي أنشأته الثورة على «سالازار» الديكتاتور التاريخي، أنشأته تحديدا لذكرى عبور الإنسان من العبودية إلى حد الحرية.

في أعلى البرج أقف طويلاً، تحت شمس «ليشبوا» اللطيفة والهادئة أريد أن أنثر، تحت أشعتها، كل أوهامي. أن أستعيد أحلامى القديمة التي دفعت بى إلى الهاوية الأحلام التي

اقتلعتني من «بادية الشام» لتلقى بي في قلب العالم الحديث. أنا الذي كنت أردد: «أقفزت من أهلها ملحوب» آية صدفة إنسانية أتاحتها لى الطبيعة؟ وكيف لاأكون متحيزاً في رؤيتي واعتباراتي؟

آي عوق، بعد الآن، يمكن له أن يثبط عزيمتى، بعد أن قذفت بأسمالي الأخلاقية، وتحررت من عيون الجميع؟

أمشى شارع «دوس دور ادوريس» حتى آخره. أصل ساحة «فيفييرا». ساحة جميلة يتوسطها تمثال «دون جوا الأول، الفاريس». ملك البرتغال، «الفارس» الذي يمتطي صهوة حصانه الأدهم. يدير ظهره للقلعة، متجها بأنظاره الصقرية نحو الشرق، حيث ساحة التجارة» على ضفاف «تاجو». «براسا دي كوميرسا» التي كانت تصب فيها، ذات يوم، سفن المحيط الأطلسى حمولاتها الثمينة المنهوبة من المستعمرات البعيدة والجديدة.

في الساحة أفارقة وألوان. أحذية وأثواب مشعة. أبنية تاريخية واجهاتها من الفسيفساء الثمينة التي لازالت على قيد الحياة. صمت وموسيقى. موسيقى تشع في الفضاء مثل ذرات ضوء رؤوف. فيها أقف طويلا. لاأعرف إلى آين أسير. أستعيد

آلاء «بيسوا» الجارحة التي كتبها عن هذه الساحة «المسالمة».
أريد أن أشم عطر مكلماته المخيفة. لكن التاريخ لايبقى لنا من الحياة سوى الكلمات. سوى كلمات نعتقد بها كما يلائمنا الاعتقاد. وتلك هي «الخدعة العظمى» للتاريخ. لتاريخ نُنَمذِجُهُ على هوانا.

«ليشبونة» تلال جمالها هادىء وعميق. بشرها صامت ولطيف مثل مخلوقات أضاعت، دون أن تدرى، روحها، لكأنهم كائنات شبه أسطورية تعابيرهم لاتسم وجوههم وأجسادهم محمية بالسكون، عيونهم خرس، ومشيتهم بلا صوت. وهو ماكان ربما، مصدر الإحساس العميق بعبث الوجود الذي عاناه «بيسوا».

وأنا أمشي الشوارع التي مشاها، وألم الأمكنة التي كان يؤمها، أحاول أن أدرك السر: «سر أسطرة الحياة اليومية المبتذلة» الذي تفنن فيه «بيسوا». وأكاد أن أعثر، أخيرا، على بعض دلائله: «إنه اللاتعبير المحبط الذي يتمتع به البشر هنا» و«كتاب اللاطمأنينة» ماهو، في الحقيقة إلا صرخة ضد طمأنينة أبدية تملأ أجواف كائنات هذه المدينة المليئة بالألغاز والأسرار. [1]

من آين يولد منظور العبث في نفس الكائن، إن لم يكن من «مفهوم الجدوى» المتأصل في النفوس؟ أو ليس هو هذا ماكان يرعب كاتب الحسابات المحبط، الذي يقضي يومه في العتمة الرطبة، في الطابق الرابع، في بناية عتيقة، في شارع «دوس دورا دوريس»؟ الشارع المتريص بـ «براسا دى كوميرسا»، على شاطئ نهر «التاج المفعم بالأرواح.

الواجهات الفسيفسائية للأبنية المتماثلة إلى حد الدوخة، الشوارع المتقاطعة والمتوازية بدقة وكأنها حددت بالسكاكين، الفضاءات الكبرى الهامدة وهي تحوم حول «ساحة بيدر والرابع» واردة إلى النهر أو صادرة عنه، النوافذ العالية المغلقة، الحركات الصامتة للبشر وكأنهم قد حقنوا بالهدوء، العزلة المتمكنة فيهم وكأنها من طبيعة المكان ذلك، كله، وأشياء أخرى، ربما، قد تشرح الطمأنينة العميقة التي تبدو متأصلة في النفوس، قبل أن تتحول، من شدة الابتذال، إلى نقيضها.

من أقدام جبل القلعة أصعد شارع «سانتياجو» المبلط بالأحجار السود أو المشعثة. أتمثل الكنيسة الصغيرة المزينة بالفسيفساء الأزرق، قبل أن أبدأ المشي العالي بيوت حمر زاهية، أشجار عارية، وشيوخ يجثمون على العتبات يتطلعون

إلى وكأني من كوكب آخر (أنا الذي كنت في الحقيقة، أبحلق فيهم، باحثا في عيونهم عن المجهول). في منتصف النهار أصل القلعة (أتذكر منتصف العمر الذي لم أصل فيه إلى شئ، إذ لا شئ يمكن الوصول إليه في الحياة). على بابها، أقرأ: «قلعة سان جورج. من القرن الثامن الميلادى». أتجول فيها، قارئا كل علامة على حيطانها.

باحثا عن أسباب التاريخ القديم الذي لايمكن التخلص منه إلا بتاريخ حديث، وليس ذلك ممكنا بالطبع. ماذا يبقى، في ضوء ذلك النهار المنهمر من الشمس، غير «الرؤية النقدية». أو التي أريد لها أن تكون كذلك: رؤية بلا استلاب، ولا اندماج، أيضاز. رؤية تحاول أن تمتص صدمة هذا الفضاء الجديد.

عندما يتصور الكائن مدينة يحبها فهي تشبه، إلى حد بعيد، ليشبونة، مدينة على نهر، نهر سرعان مايتحول إلى محيط والمحيط يحضن الكوكب الأرضى. مدينة على الماء. والماء ينتهي إلى المجهول. ومن المجهول تنبع الثروة. مدينة لاتؤذيها الشمس، ولايدمرها الغبار، تبحر فيها روح المرء بهدوء لتصل إلى حيث يلتقى النهر بالبحر، لايتعذب المرء فيها، ولايظمأ يخاتل الشمس بالفيء، ومن الفئ يلتجئ إلى النور، فهما متجاوران، متحاوران مثل أختين بحبيب واحد.

هي في أقصى نقطة في غرب القارة الأوروبية العتيقة، وتحس نفسك في الشرق، فيها، وهج أرواحها يشع من الماء، وتلمع الطمأنينة، مثل الرصاص الذائب، على وجوه أهاليها تصعدها فتلقاك، وتنحدر عليها فتستجيب لك لكأنك لم تزر مدينة غيرها من قبل. وكأنها لم تر أحداً غيرك.

بعد انحدار حجري طويل، أجلس، في آخر النهار، في ساحة «فيغييرا» الساحة «الإشكالية» التي تسد منافذ شارع «دوس دورا دوريس» الذي التهم حياة «بيسوا». وكان يوم الكرنفال: يوم البرتغال السنوى للاحتفاء بفن الفولكلور. لم يكن في الساحة غير هفهفة الأقمشة، ولمع الفسيفساء. أجساد النسوة تتثنى مثل عيدان الخيزران على جيلان نهر «الخابور» تحت شمس الجزيرة الحارقة. كنت أحسبها ترد الماء لتشرب من شدة القيظ، تلك العيدان الطويلة كالحراب، وكنت أشدها لترتخى بين يدى مثل امرأة تسيل رعشاً. كنت أختل بين أغصانها الخضر، ذات الأوراق المخروطية الأنيقة، وأنا أحس بجذوعها تجلب الماء من النهر إليَّ.

في الضجة العبثية المتصاعدة «لم أعد أرى في الضباب الخفيف للصباح نصف الريبعى حي البيكسا يستيقظ بهدوء»

كانت الأصوات تغرقني مثل لجة بحر قرر أن يغضب فجأة. أصوات صارت تمنعني حتى من الرؤيا لكن اكتشاف سر الواقع، لايمكن أن يتم إلا بالنظر إليه بمحبة، ومن أكثر من زاوية، كما يقول. إنه اكتشاف الحياة، نفسها (وهو أمر سهل). وليست مقولة اللغز (أو الميستير) المنسوبة إلى الواقع إلا حماقة كبرى من حماقات الفكر السكونى الذي يسود العالم (وبخاصة القسم العربى منه) فالواقع لا ينتمي إلى الغيب، وإنما إلينا. وعدميته تنبع من ارتباطه بنا، ومن عدم ارتباطه، في الوقت نفسه. وهو لايحوى سراً، ولاحقيقة آيضا، أنه هذا الذي أراه الآن، والذي لاأرى منه شيئاً. إنه الذي أواجهه بقلبى المليء بالرعب من مواجهته. إنه الشئ، واللا شئ، معاً.

يحط الحمام، عصراً، في ساحة «بيدرو الرابع» الملاصقة لساحة (فيغييرا)، والتي تنفتح عبر شوارعها المستقيمة، المنحدرة من الغرب إلى الشرق، على نهر «تاجر» الذي تفصلها عنه بوابة تاريخية شاهقة، فقط، فيها، أقعد، كالعادة، وحيدا، في مواجهة الشمس اللطيفة التي بدأت انحدارها الذي لامفر منه. أشرب قهوتي اليومية للمرة الخامسة. أريد أن أظل مستيقظاً. أن أرى العالم بعيون مملوءة بالنور. الناس تتكاثر في عصر الأحد، هذا. وأحب الناس عندما تتكاثر حولي وحشة

الصحراء القديمة تتبدد وأحس بفمي رطباً، حتى ولو كان الظمأ فيه.

لو كان هنا، ولو كنت أستطيع التحاور مع «فكره» لأعرف ماذا «يرى» في هذه الجموع المتدافعة، مثل طرش يعود، مساء إلى مراحه، لقال لى: الكائن، مهما كان موقعه في الحياة (ولنظر بلا اتفاق إلى الرجل الجالس قربى، والمرأة الملاصقة له) أسطورة. أسطورة من أساطير الحياة اليومية التي نتمتع، الآن، بشمسها الذاهبة للغروب. نتمتع بها متهيئين لاستقبال ليل جديد، لاتعود الشمس فيه موجودة، وذلك لايثير أسانا، وحدنا، أنت وأنا، سيضيف، ننتظر الغياب، ممتلئين بهجة، ومعزولين، ألم أقل لك أن «ليشبوا» هي مدينة العزلة، بامتياز؟ وعزلتها ليست وجودية، وإنما ميتافيزيقية، والأغبياء، وحدهم، سيبتسمون كالعادة، عند سماع هذه الكلمة العظيمة التي تنهي الفكر عن الجمود، وتأمره بالشغف المستمر.

تظل نفسك في الشيء إلى أن تفعله، سيضيف، وعندما تفعله تتمادى نفسك فيه. فنادراً ماتكون رغبة الكائن كاذبة (حتى ولو كانت عابرة). و«ليشبوا» التي توحى بالحرمان هي، في الحقيقة، بحر من المتعة. ومع أنها تبدو غائبة، ونحن ننظر

إليها، إلا أنها حاضرة في النفس، باستمرار. ولربما، كان ذلك سر جوهرها العصى على الاستيعاب.

أعود، في اليوم الثالث، إلى الحى الواطئ في ليشبونة، إلى بيكسا، حيث عاش بيسوا حياته كلها، هنا، دون أن يكون مضطرا لرؤية بقية العالم.

أقف على عتبات شارع «فيكتوريا»، أولا. منه أرى القلعة. من جديد، عارية واقفة في فضاء المدينة الذي يخبئ أسراره بأنانية كم من القبل والآهات تتحقق، الآن، في هذه الأطر الحجرية الموحشة، لهذه المدينة الزاهدة؟

شارع «أوريا» من بعد. ومن ثم شارع «دوس سابا تيروس». فـ«أوغستا» الذي يوصل ساحة «فيغييرا» بـ«براسا دى كوميرسا». فـ«كوريروس» الواقع على بعد خطوات من الشارع الذي أبحث عنه: «دوس دورا دوريس»: حيث مصلحة الحسابات التي اهترأ فيها بيسوا.

في هذا الشارع المحاصر بالمدينة الضاغطة، سأجد المطعم الصغير الخاتل في أعماقه. المطعم الذي كان بيسوا يؤمه، ولابد فيه ساكل، أنا الآخر، أختار طاولة لشخص واحد، محصورة في الزاوية المعتمة منه. وبانتظار أن يتحرك النادل

البطيء، أقضي فترة مابعد الظهر، كلها (تقريباً) متفرساً في الوجوه (كمن يبحث عن مطلوب)! لكن «بيسوا» سيدلنى عليه: على وجه الطباخ القانط، المليء بالزهد وبالصمت (مثل حاج يتهيأ لركوب طريق العودة)! ومن وجهه إلى وجه النادل الأكثر قنوطاً، والأبطأ من سلحفاة، والذي يقدم الأطعمة وكأنه يقدم جوهر حياته: يضعها باحترام، وحرص مثيرين، أمامك، ويظل واقفاً فوق رأسك، إلى أن تعبر عن إعجابك بما أتى به لك. فيه أكلت بشهية، كالمجنون، وهمهمت مادحاً. وهز لي رأسه اليابس شاكرا، وتفاهمنا دون أن نحكي.

في اليوم التالى، سأعود إلى مطعمي، وسأختار الطاولة الصغيرة (لشخص واحد) في الزاوية المعتمة منه. الطاولة الأولى، نفسها. انتظرت واقفاً لصق الزجاج إلى أن تحررت من الزبون الذي سبقنى إليها، قبل أن أقرر الولوج. (لكأنها غدت طاولتى الشخصية. وبدونها لايروق لى الأكل). سيبتسم النادل لى، دون أن يبتسم (أحسه بفعل ذلك، وهو يدير رأسه عني). أما الطاهي الفيلسوف فسيمتعض من تصرف النادل الأخرق، الذي تجرأ فرفع بصره إلى: إلى زبون جاء يطلب الإلفة والطعام!

خلف الستارة الفضية، ومن خلال النور الباهت لنهار «ليشبونة» الجميل، أقضى ساعات، منتظراً وجبتي، متطلعاً إلى أرجل المارة تعبر الطريق بلا استعجال. النادل اللطيف يقف سادراً بين الزبائن، وكأنه لايشجعهم على الأكل، وإنما يحضهم على التفكير! على التفكير بمصير كروشهم التي ستمتلىء عاجلا بما يحبون (وعاجلاً بالنسبة إليه هو مابعد الظهر، كله).

أما الآخر، الذي وصفه «بيسوا» بدقة رائعة، فهو لايتوقف عن الحركة الصامتة، مثل راهب بوذى يودع في آخر اليوم أساه! حركة حميمة تملأ الجو بأنفاسه التي تتقطع بانتظام لكأنه يفكر بالنفس وبرجليه الواقفتين، لا برأسه الذي يبدو بلا أوهام. سآكل وجبتي الحارة بهدوء متفرسا فيمن حولي، وبخاصة في وجه النادل الغموض: الوجه الذي يبدو عليه، وكأنه عانى المآسي كلها، وعرف كل شئ في الحياة. لكأن المعرفة تنبع من بين أصابعه التي تلوى طراوة المآكل والغضون! لابد أن يكون هو الطباخ المتفانى، نفسه الذي وصفه بيسوا، وهو يراه يهبط، يوما بعد يوم، من قطار الأرياف الذي يحط الرحال فجرا على ضفاف «التاج» قبل أن يغوص، صامتا، في حي «بيكسا» الواطيء.

سـأتمتع بوقـتي الطويل، نسـبـيـا، لـلأكل شـاكـرا البـاترون «باسكيـز» الذي سمح لى بوقت غداء هادئ قبل أن أصعد إلى الطابق الرابع في مصلحة الحسبات، بشارع «دوس دورا دورديس». ولكن مـازال لدى الوقت الكافي لأزور «لاروتوندا» (الدوار)، حيث تمثال «الماركيز دو بومبال» الشهير، يهيمن على الفضاء بأبهة ورصانة! سـأحفه، قبل أن أودع نهار ليشـبونة الجميل، لأستقبل ليلها الرائع!

في مـقـهي «فلور» بشـارع «براتا» في قلب الحي الواطيء، أجلس مستقيما، أتخلص مؤقتا، من سيطرة الفضاء على وعبر الواجهة الزجاجية الهادئة، أرى ابتسامات النساء السمر تطحن الوقت. ريح خفيفة تطير شعرهن، وأسنانهن البيض تلمع في الضـوء الخـفـيف للنهـار، دون أن يأبهن برغبـات الناظرين.

في «فلور دى براتا» أرى النور يعبر الزجاج الشفيف بلطف. لاشئ يعكر صفاء النهار، هذه المرة المحيط الهادئ ونهر التاج وديع قبل «التاج» بقليل، أصل ساحة التجارة التاريخية «براسا دى حوميرسا» أتحسسها بالنظر، عن كثب: بشر وتلاوين أضواء وأمواه. شواطيء ومرافيء، انتظار، انتظار مستمر لقادمين من بعيد، مزودين بهدايا ملونة بالأساطير.

عقدتني الحياة، كما يعقد الخياط آخر الخيط ولعقد الحياة ملامح وأفنانين. جالسا، في ساحة «بيدرو الرابع»، كالعادة، آخر النهار، أحسها تغلى في أعماقى مثل قدر أمي القديم، المصطلى ناراً. قدر النحاس الصديء المفعم بحليب آخر اليوم. الحليب المعطر بروائح الرعى في هضبات الجزيرة: قرنفل برى، ودعج، وحيلوان.

التمثال المرمري ينتصب أمامي باختيال، خلفه تتراصف الأبنية الحجرية الجميلة، مثل أثواب النسوة العابرات. ساحة «بيدرو الرابع» تلخص «ليشبونة» كلها. منها يبدأ حي «البيكسا» الواطئ، وإليها ينتهي. وفيما بينها، وبين نهر «التاج» تتوازى شوارع «بيسوا» الواحد لصق الآخر، مثل مسالك حجرية ممدودة إلى النهر.

نحب المدن عندما نحس أننا نعرفها، أو نتعرف عليها، بسهولة. ونكره المدن التي نحس فيها بأننا غربان. و«ليشبونة» مدينة تحمل نفسها إليك، حتى لاتعود مضطرا إلى السير فيها لتراها بهاؤها يتجلى في أجساد نسائها الممتلئات بالرجف والخفور. منذ أن تطأها تذوب فيها، وكأنها الماء التي تشتهيها: ماء الحياة المنبجس من القلبين. كيف امتلأنا غرورا بأمهاتنا -

المدن التي نشأنا فيها ـ قبل أن نتذوق الأخريات؟ قبل أن نتعرف على مدن العالم المرمية على صفحات الكون؟ أي بؤس يعيشه الكائن ذو المدينة الواحدة، ياإلهي!

الثقافة العربية البائسة: ثقافة الرضيع من غير ثدي أمه، هي التي تحيل إلى التشدق والتملق، وهي التي تسهل الانحناء الوضيع أمام المؤسسات، حتى ولو كانت دون قيمة تاريخية، وإلا كيف نفسر اجتماع «كبار المثقفين» العرب المعاصرين في جريدة واحدة، تصدرها، أو تساهم في إصدارها، أكبر دولة رجعية في العالم؟ وكل ذلك بحجة أنها مقروءة! مقروءة فقط؟ لكنهم ينسون أنهم «مقرؤون ـ مرميون» رأساً! ولاأثر تاريخيا لما يتقيئونه كل يوم!

ماأثار هذه الزوبعة العاتية في نفسي، هو صمود « بيسوا» العظيم الذي قبل أن يعيش مغموراً، دون أن يتنازل عن أهوائه، أو «يرتبها» ليغدو «مقروءا» كالآخرين الذين نسيناهم، حتى قبل أن نقرأ لهم سطرا! هو الذي لم يغادر «ليشبونة» طيلة حياته، ولم يبحث عن قارئ له، أبداً. قارؤه كان هو، نفسه، ومن ثم نحن، نحن العالم الكبير الذي لم يكن يأمل، ربما، أننا سنقرأه، ذات يوم سنقرأه، دون أن نرميه في سلال المهملات،

كما هي الحال مع أكثر ما« يفرزه» المثقفون العرب اليوم، وفي مقدمتهم أنا. فالكتابة الحقيقية هي صيد الأحاسيس، ونحن مازلنا نصيد ذباب الكلمات.

عند التقاء شارع «دوس دورادوريس» بشارع «سنتا جوستا» التقي « بكازانتيكا دو بيسوا» (دار بيسوا القديمة). بناء عتيق، ذو طوابق خمسة، آجرى اللون، مربع الشكل، على بعد مائة متر من «ساحة فيغييرا»، تحيط به الآن دكاكين الباعة المتجولين، ولا أحد غيري في عصر ذلك اليوم، يقف ليتملاه! ولكن، هل نبحث عن أحد (أو عن أثره) إلا إذا أحببناه؟

في «ساحة فيغييرا»، تحت شمس الأصيل، أجلس، ذلك اليوم، بالقرب من بائع الكرز. أسلم نفسى للشمس اللطيفة أدعها تحممني وأنا أتابع العابرين بصمت. لكن الغيوم السود التي ستهجم على الشمس بهمجية، ستثبت لى عبثية الأحاسيس، وهشاشتها. لكأن تلك الغيوم الحاقدة تريد أن تقنع الشمس (ومن أنا بالنسبة لها؟) بأنها ليست سيدة الكون، وأن قهرها ولو للحظات أمر ممكن.

بفعل الغيم الأسود ستظلم الساحة قليلاً. وسيملؤنى مقت مفاجئ للظلال، وحده، بائع الكرز الفتى يظل يثرثر مع

السيدات الفاتحات أكياسهن، وهو يهيل لهن حياته المغمسة بعرقه، وفجأة، يتوقف عن الهيل، رافعاً، بصره إلى السماء، مستنشقاً نور الشمس الذي انبثق من تحت انقاض الغيم الذي تبعثر، للتو.

في مقهي «سويزا» في ساحة «بيدرو الرابع» في قلب حي «بيكسا» ستتكرر جلساتي. أعود إليه باستمرار أحيط نفسي بالعالم اللا متجانس الذي يؤمه. صار لي فيه مقعد وفضاء وانتابتني فيه مشاعر ورعافات. فأنا ألف المدن من مقاهيها، وآنس إليها من البشر الذين يسكنونها، مؤقتاً أو باستمرار.

«ليشبونة» لاتثير العدائية، ولاينطلق منها شرر الغربة. كل ماتعرفه من قبل، يتبخر فيها، وكأنه لم يكن. صرت أتآلف مع النادلين، وأتفاهم مع طباخي الأسماك، وكيالي الخضراوات. حتى الأحجار البيض التي ترصف شوارعها بدت لينة ولطيفة. وأتساءل: بفضل من كل هذا الانسجام؟ أيمكن لكاتب آخر، أن «يسوق» مدينته بمثل البراعة التي امتلكها «بيسوا» ولم لانعرف نحن العرب (باستثناء نجيب محفوظ) سر هذا التضاد المبدع» مع المدن التي «عذبتنا» أية حماقة تجعلنا نتسابق لذم الأمكنة التي نشأنا فيها، دون أن نشغل أنفسنا بالبحث عن مزاياها؟

على من يقع اللوم، إن لم يكن على «أسياد الأمكنة» ومدمري التاريخ» لماذا لاأصمت الآن! لماذا لاأمشي قبل أن تسقط الشمس وراء جبال العمارات، ذات الألوان الغزيرة الطيفة؟ لاأريد أن أرى الليل من الساحة، من فضاء المدينة المفتوح. أريد أن أتحسس فرح المساء، والمساء، دائما، حزين.

أريد أن أمتلك «الإحساس القيامى بالحياة» على حد تعبير «بيسوا» ولو لمرة واحدة في حياتى.

متمهلاً أسير هذا الصباح، بادئاً «ليشبونة» من الغرب، وفي رأسى تدور تعابير «بيسوا» عن المدينة التي كرهها إلى حد المحبة! في أول النهار، تبدو ليشبونة غافية مع أن حركتها لاتكف عن الاضطراب. اضطراب سيغسله مطر يوم بعيد. ضباب البحر القريب، وغمام نهر «تاجو» يلونان الأفق بشفق حزين. شفق على حافة الغسق. الغريب في الأمر، أن المدينة تبدو وكأنها قارة مستقلة عن بقية العالم، وأناسها كذلك.

هأنذا. أخيراً، في «الروتوندا» حيث تمثال «الماركيز دي بومبال» يقف ماسكا بلبدة الأسد الجاثم عند قدميه. رذاذ خفيف يدغدغ الفضاء الليشبوني، دون أن يبلل أحداً، لابد أن يكون هو، نفسه، المطر الذي «دمر» بيسوا، ذات يوم: المطر

الفاتر، الصامت، البطيء الوقع، الذي لايعبر عن آية حالة، ولايخيف الناس. مطر قدريّ. المدينة، كلها، تغدو ألعوبة بين حبيباته التي لاتكاد تحس. في المطر الذي يكرهه بيسوا، تتغير ألوان المدينة، وتنبثق هيئات نسائها، وتتسارع السيقان في المسير. ليشبونة الواثقة من نفسها، والمكتفية بتاريخها الاستعمارى العريق، تبدو متلجلجة تحت هذا المطر الخفيف!

تحت تمثال الماركيز «دى بومبال»، الذي لم يزره «طباخ» بيسوا، رغم مرور أربعين عاما على وجوده في ليشبونة: بشر وخيول، ظهور ونسوة عاريات. رجال عضال، يجرون أحصنة محملة بالبضائع والصناديق يقودهم رجل يحمل عصا طويلة، آمراً إياهم بالوصول قبل أن ينقطع المطر. ومن حركة الجر الوئيدة، التي تتميز بها مخلوقات التمثال الجميل، يبدو هؤلاء الرجال وكأنهم قادمون من الآفاق، محملين بثروات لاتحصى. من أي القارات عاد هؤلاء المغامرون، وكيف تسنى لهم كل هذه الغنائم والأفخاذ؟ فوقهم، أعلى منهم بكثير، يقف الماركيز بأبهة، حاضناً أسده المروض، وكأنه يطمئنهم، بعد غيابهم الطويل، على حالة البلاد.

المطر يزداد حدة، وأنا لاأبرح مكاني العاري في الساحة البيضاء، الساحة، نفسها، التي درت فيها كثيراً «برفقتها»، منذ

سنوات، دون أن يشغل فكرى بعدها الميتافيزيقى، هذا! وإني لأتساءل اليوم: لولا «بيسوا» أكنت أرى الآن ماأراه؟ من ملجأ إلى ملجأ أغافل المطر وأمشى. أمشى «فينيدا دي ليبردادي» (شارع الحرية)، كله، أخيرا أصل شارع «الكسندر الهرقلانى»! وأتساءل بتوجس: من هو هذا «الهرقلانى»؟ لابد أن يكون كائناً بلا أهمية، رغم اسمه الكبير، وإلا لذكره «بيسوا» بسطر.

برغم المطر الرذاذى أتابع السير حتى «مطعمي» الصغير الخاتل في أعماق الشارع العتيق. النادل الصامت، إياه، سيدلنى علي «طاولتي» المهيأة لآكل واحد، والمحشورة في الزاوية المعتمة منه: حيث كان يقبع «بيسوا» خافتا وأليفاً. نادل يشير ولايتكلم يشبه، بتعابيره المسكرة فيلسوفا ملّ من نشر حكمته على الخلق. معه، ومنه أدرك البعد المأساوى للكائن: بعد النهاية المعروفة مسبقاً في الحياة. وهي كذلك لشدة ابتذالها. إنه في الخمسين، وهو يدرك، تماما، ماسيؤول إليه في الثمانين. أقرأ هذا في وجهه وعينيه. إن طلبت كثيرا فهو حزين، وإن طلبت قليلاً فهو كذلك. وتصور أنه لن يتذمر حتى ولو لم تطلب شيئاً. أتكون تلك هي حكمة البحار القديم الذي لاتثيره إلا أمواج الرغبة العاتية، ولاشئ يخيفه غير هدوء الآخرين.

الا يمكن أن تكون الحياة، في النهاية صفحة من أثير بلا ارتجاج؟ لماذا أريده أن يمتلئ اضطرابا، هو الآخر، وهو بين جدرانه، وصحونه ملآي بالبخار. هاهو ذا يحمل إلىّ قدره لأرى مافيه، قبل أن يغرقنى بمحتواه، فهو يكره الخدعة إن لم تكن علنية.

يلبد الحمام تحت المطر، مثل زرازير «الجزيرة» في عواصف الربيع، تلك التي كانت تلجأ إلى المزابل القريبة من الدور، حائمة حول الفخاخ التي نصبناها لها. ليشبونة تتحول إلى سيول، ووجهها الكئيب صار غامضاً ومهيباً. وأكاد أفهم مايقوله بيسوا عن المطر، وهو، من نافذته العالية، يضع رأسه باستسلام تحت قطراته « مثل من يضع رأسه تحت مقصلة الحياة»!

المطر، هنا، لايغسل شيئاً، وإنما، هو نفسه، ينغسل بالفضاء، يلامس أجساد المدينة برصانة، وكأنه يريد أن يؤكد لها أنها، دائماً، تحت رحمته المائية. ولذا يظل الناس يمشون تحته بهدوء، وكأنهم ألفوا أن يبتلوا به، منذ الولادة. وفي النهاية، لم على الكائن أن يشعر بالأسف من جراء مطر عابر، مثل رغبة مكبوتة تنهمر، فجأة، وتغيب!

من ساحة «بيدرو الرابع» حتى ساحة «لارجو ترينداد كولهو» على الهضبة المقابلة، أصعد آلاف الدرجات، وأهبط آلافها. أمر بعشش وقصور. بكائنات تحوم مثل الطيور الضالة في فضاء تطؤه لأول مرة. عما تبحث هذه الوجوه المحتقنة بالشغف؟

في أعلى الهضبة، الأبنية ذات الواجهات الفسيفسائية الكثيرة الألوان، تنبئ عن القرون الأولى. في آية أزمنة بنيت هذه الأحقاف؟ ومن بناها غير رجال تأكلهم نار احتواء الكون؟ الألم المنثور هنا لايخص المدى، وإنما التاريخ. تاريخ ماوراء البحار الغابر. الصمت المهيب المتبقى حولها هو وحده الشاهد على عظمة الإنكار. إنكار تاريخ نحن جزء منه، شئنا أم أبينا (آه! ماأتعس العبارة)!

اليوم الأخير في ليشبونة. أقفل على عواطفي الباب، وأسدل الستار على انفعالاتى. أريد أن أمشيها بهدوء أن أراها، وكأنى لاأحد. لكن اليوم الأخير هو كاليوم الأول، لا هدنة فيه. إنه اليوم الذي تقرع فيه أجراس الفرقة التي قد تكون أبدية. أية حماقة تريد تحييدي في هذه اللحظات الطافحة بالمكر؟ لماذا لاأبحث في جسد المدينة عن المناثر والخفايا؟ لعلّ

«بيسوا» الذي عاش في الحى الواطئ، منها، لم يعرفها إلا كما يعـرف النائم فـراشـه. ولذا كـانت حـيـاته مملوءة بالعـبث والخوف، الخوف من أن يستيقظ، ذات يوم، في خضم العدم. العدم الذي كان يعيشه، صاحياً، كل يوم.

حتى يهدأ المطر الذلول، أختبئ في عالي الكون، في إحدى مغاور الهضبة المقابلة للقلعة. في الحضيض يخنس «البيكسا»! كيف قضى «بيسوا» عمره الطويل في أرض واطئة مثل هذه، وهو لايرى إلا الأعالي: أعالي الذات التي احتقرت كل شيء؟ ولم يختبيء العربي المثقف (وغيره) في ذاته. ولايعود يرى حتى الجبال! لأنه فقد سيادته على أحاسيسه، على نزعاته وأهوائه، واستسلم، نهائيا، «لسلطته» التي لاتغمره إلا بالإحتقار، فلم يعد يعرف من هو ولاآين يكون؟

الآن، أريد أن أتجاوز هذا، كله، وأن أرى المدينة. مدينتي الداخلية قبل أن تتهدمّ فوق رأسى. وفي هذه الحال، حتى مقولة «علي وعلى أعدائى، يارب» لن تفيد شيئاً. فأعدائي، منذ وعيت أسبابى، هم أنا.

أريد أن أتنفس هواء المدينة الممطور، وأن أرتعش مثل عصافيرها المرتجفة، تحت ضوء الشمس البليل، في ساحة

«بيـدّور الرابع» دون أن أن تأبه بأقـدام المارة، حـولهـا. أريد أن أرى، وأن أرى، لعلّ الرؤية تتحـول، ذات يوم، إلى وعي، آي عـزاء لنا، نحـن العـرب الخـانعـين، سـوى الاغـتسـال من وحـول ذواتنا بمرائي الغير. اللعنة!

# سلاماً دمشق!

لم أكن أتصور أني، بعد عشرين عاماً، سأكتب إليك، بعيداً! كنت أتمنىّ أن أكتب فيك وعنك. لكننى صرت مقتنعاً، الآن، أن أولئك الذين لايتذكرون تاريخهم سيعيشون مرارته باستمرار. وهو ماصار مصدر خوف لى! خوف يجعلنى أتشبّث بدقائق ذلك التاريخ الغامر: تاريخ المدينة الوحيدة التي أحببتُ!

كنت أحسب أن البعد سيكفينى مشقة العود والحنين. سيخلّصنى من سيطرة المكان علىَّ! ولم أكن أدرك أن المكان بالبعد عنه يتملكُ الكائن، أكثر مما يتملكه بالقرب!

دمشق! صرتُ بعيداً؟ صرتُ في مكان آخر؟ بلى! فليس من الضرورى أن نحب المكان لنقيم فيه، ولا أن نظل مقيمين فيه ليكون حبنا له صادقاً!

صرتُ أدركُ أن أهميـة المكان تكمن في تمايزه عن الذات، وفي انفصال هذه الذات، الواعي، عنه. وهو ماسينضج وعي الكائن بالعالم وبالتاريخ. بتاريخه الشخصى، أساسًا! فالتاريخ مكان.

مايهمنى في هذه العلاقة الشائكة، إذن، ليس هو «الحب المثابر»، وإنما «الوعى المغاير». الوعي الضروري (أكاد أقول العدائى) الذي سيسمح بنقد المكان بلا تنازلات. ذلك، وحده، قد يعيد ارتباط الكائن بمكانه الأول، من جديد. وهو الذي سيحوله من مجرَّد «محل للسكنى»، إلى فضاء مبدع للسلوك، لسلوك مبني على الحرية والمتعة.

دمشق! هكذا تعرفين أننا لانستبدل مكاناً بمكان آخر، وإنما وعياً بوعى آخر! أننا لاننفرُ من الأمكنة، وإنما من الفكر الذي يتحكمُ فيها. وهو مايجعلنا نشعر بالخسارة المطلقة، خسارة الفقد الذي لايعوض: خسارة أن يكون لك مكان لاتستطيع الإقامة فيه، أو العودة إليه. وأن تحيا في مكان آخر، وأنت تشعر أنه لايخصك! فالمكان كالكائن لايمكن استبداله.

سلاماً دمشق!

سلاماً.

## الفهرس



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع : ١٥٣٤٩/ ٢٠٠٣
I.S.B.N. 977-01-8838-7



وبعد أكثر من عشرة أعوام من عمر مكتبة الأسرة نستطيع أن نؤكد أن جيلاً كاملاً من شباب مصر نشأ على إصدارات هذه المكتبة التى قدمت خلال الأعوام الماضية ذخائر الإبداع والمعرفة المصرية والعربية والإنسانية النادرة وتقدم فى عامها الحادى عشر المزيد من الموسوعات الهامة إلى جانب روائع الإبداع والفكر زاداً معرفياً للأسرة المصرية وعلامة هامة فى مسيرتها الحضارية .

سوزا





التنفيذ

الهيئة المصرية العامة للكتاب